رواية

آلام ذاكرة الطين

أحمد ضحية



2016



فهرسة المكتبة الوطنية اثناء النشر – السودان

813.9624 أحمد محمد ضحية أحمد، 1971م

أم. أ

صانع الفخار (رواية)/ أحمد محمد ضحية أحمد – الخرطوم: مدارات للطباعة والنشر،2016.

200 ص؛ 24 سم

ردمك: ISBN: 978-99942-70-67-5

رقم الايداع: 2016/699م

1. القصص العربية– السودان. أ. العنوان



الناشرون: مدارات للطباعة والنشر والتوزيع 2016

سـنـاء ابوالقاسـم ابوقصيـصة

الخرطوم ش الجمهورية تقاطع عثمان دقنة

تلفونات: 00249912893971 -24912855588100

Madarat009@gmail.com



لوحة الغلاف للفنان عبدالله محمد الطيب

التصميم الداخلي والغلاف: معمر مكي عمر

إهداء:

إلى أرواح شهداء ثورة دارفور المستمرة منذ 2002

وإلى ارواح شهداء هبة 23 سبتمبر 2013 المجيدة،

و إلى الكائن العجيب، الصديق إبراهيم خضرحمد

أحمد



يحكــى أن تاجــرا زوج إبنتيــه. واحدة إلى فلاح، والأخــرى إلى صانع فخار..

و بعــد عام سافر الرجل ليــزور إبنتيه، فقصــد أولا زوجة الفلاح. التي إستقبلته بفرح. وحينما سألها عن أحوالها، قالت:

- زوجــي إستــدان ثمن البــذور، واستأجر أرضا وزرعها. فـإذا أمطرت السماء، فنحن بألف خير. وإن لم تمطر فإننا سنتعرض إلى مصيبة!!

فتركها وذهب لزيارة إبنته الأخرى..زوجة صانع الفخار. التي استقبلته بفرح ومحبة. وفي جوابها على سؤاله عن الحال والأحوال أجابت:

- زوجي إشترى ترابا بالديــن، وحوله إلى فخار. ووضعه تحت الشمس ليجف،فـإن لم تمطـر فنحن بألــف خيروإن أمطـرت فإن الفخــار سيذوب وسنتعرض إلى مصيبة.

عاد الرجل إلى زوجته التي سألته عن أحوال إبنيتها فقال لها:

إن أمطرت ألطميخدك ونوحي وإن لم تمطرألطمي خدك ونوحي!

هذا هــو حال صانع الفخار مــع البلاد الكبيرة. فلــدى إستيلاءالحاكم العام علــى السلطة ذات فجر بعيد. أعلن الحاكم العــام في بيانه الأول، أنه

سيحـول البلـدة إلى جنة أرضيـة. ينعم فيها أهالي البـلاد الكبيرة بالرخاء والرفاهية والسلام. حتى أن بإمكان الذئب أن يتآخى فيها مع الحمل. فينام الجميع قريري العـين هانئيها. ولم يمض سوى وقت قليل، حتى ذهبت كل وعود الحاكـم العام أدراج الرياح! فقد تتالت كـوارث الطبيعة، وأجتاحت الأوبئـة البلاد الكبيرة تحصـد الأرواح دون رحمـة، وأشتعلت الحروب في دار الريـح والصعيد ودار صباح. فأصيب الناس بالفزع وفقدوا صوابهم. إذ ما عادوا يجـدون ما يأكلون أو قطرة ماء يشربونها، بعد أن تقلصت وجباتهم اليومية إلى وجبة واحدة!!!

وكان العـالم.. كل العالم يعرف بأن شعب البـلاد الكبيرة، أصبح في عهد هذا الحاكم.. شعبا من المشردين والمطاريد واللاجئين والجياع! فأخذوا يرسلون لهم كل أنواع الإغاثات، من طعام وعصائر وخيام وأدوية وأموال.

لكـن ظلت الأخبار كما هـي لم تتغير!.. فحار أهـل الخير الطيبون في الجوار والعالم الواسع! وأرسلوا عيونهم إلى البلاد الكبيرة. ففوجئوا بأن كل شـيء متوفر: الأكل والشرب والعلاج والنقـود.. لكنهم لم يجدوا شعب البلاد الكبيرة.. كان شعب البلاد الكبيرة قد إختفى؟!

I

«لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!»

قتــل صانع الفخار بذات الطريقة التي أعدم بها أسلافه، من حاخامات وقساوسة كنيسة البلدة القديمة، في الأزمنة الغابرة! إذ صلبه عسس الحاكم العامعلى صليب من خشب «اللعوت» سيء الرائحة وأشعلوا فيه النار.

بعدهــا بسنــوات قليلة.. عندمــا بدأ بعضــ الأهالي يفيقــون من هول الصدمــة، جعلوا من يوم مقتلهعلى ذلك النحو،ذكرى سنوية. كما إتخذت كنيســة المقرن أو البلدة القديمة،من هذه الذكرى بداية لتقويم جديد.أطلقوا عليه «تقويم ود أمجبو»، الذي بمرور الوقت أصبح تقويما لإحياء ذِكرى شهداء الإيمان،المنادين ب»فصل الدين عن الدولة». وما يزال هذا التقويم يستعمله المُزارعــون في برية البلاد الكبيرة الواسعة، لتتبع تغيرات الفصول الزراعية. وكذلــك في التأريــخ للأحداث العظيمة ك»سنة نجــع الناس لديار سافل.. أوعندمــا ضرب تمساح «أب كبلو الليــة» أوعندما ضلت القرنتية طريقها من النهر إلى زندية، فسقتهــا فداديات (البريزية) المريسة»وهكذا تغلغل التقويم الجديد في كل المناشط الإجتماعية للبلدة القديمة.

«لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة العتيقة!»

في اللحظــة ذاتها التــي كانت روح صانع الفخار تصعــد إلى السماوات

العلـــي، كان الخزين يجلس على «بنبره»المعتاد ذاته، الذي ظل يجلس عليه منذ عشــرات السنوات،كلما غشـــى أنداية «مستورة كحــل الليل». بينما جميع مــن في الأنداية سكارى يتداعون ويحكــون كلاما غير منتظما، عن أمجادهــم الضائعة في هذه البلدة الضائعة.. إذ يتنهد التوم ود أب قرن وهو يغني وقد هاجت به الأشجان:

«حليل موسى يا حليل موسى.. حليل موسى الأمو جاموسة

حليل موسى اللي الرجال خوسة

ما بيأكل الملاح أخضر.. ولا بيشرب الخمر يسكر...»

فيقاطعه ود الزين:

«أقيــف يا أخينــا.. حليلو في شنو؟ زول لا بياكل المــلاح الأخضر، ولا بيشرب المريسة يسكر، تقولوا حليلوا؟! حليلو في شنو؟! والله عجايب!

ثم يتنهد وهو يقول:

«والله أيام زمان يا عم.. يا عم منو؟..»

«الخزين»

«والله أيــام زمان يا عم الخزينالواحد كان يشــرب أربعين عبار في اليوم، وما يسووا ليهو أي حاجة.. إنت عارف جبارة الهنباتي ده أبوه لما مات خلا ليهــو شي وشويات.. قروشــ زي الهم في القلب.. علــي الطلاق ضيعهم كلهم على الأخوان..»...

فيقاطعه صوت سابل الستر من بعيد:

«علــى الأخــوان ولا على الفداديــات ستات المرايس.. قلــة عقل وقلة رأي..»

فيرد الهنباتي:

«كلــو ما مهــم.. المهم الرجالــة.. علي الطلاق تــاني كان ورثت.. تاني أضيعهم.. أفرتقها وأعدم الملين..المهم الرجالة..»..

فيقاطعه سابل الستر:

«زمن خاين. الصرفت عليهم دم قلبك، علي اليمين هسه لما يشوفوك في الشارع، يفوتو ليك الدرب.. سلام الله ما يدوك ليهو..»

فتثور مواجد الهنباتي فيتنحنح:

«تف يا دنيا تف.. وحياة الحرام أنا كنت أحرق في اليوم جنيه وجنيهين مريسة ومزّة بس!»..

فيأتي صوت ود الزين غاضبا:

«يا زول أوزن كلامك.. أنا الأجعص مني منو؟!»..

ثم ينشد:

«يا مهدية حكمك ما بقالي.. سويت العبد في راسي دلالي

يطير أب رقعة يسكن في الضهاري.. ويجي التمباك محمل بالرحالي

ونشق السوق نعلب في السجاري.. ويقج شرموطنا بينات الجراري..»

وكأن سابل الستر ينتبه للتو فيحتد غاضبا:

«أوزن كلامك إنت يا ود الكلب»

فيرد عليه ود الزين ورزاز المريسة يتطاير من فمه:

«كلب أبوك أنا يا بلاع الذم.. علي الحرام نسيبتك كان ما لحقتني كنت.. أنا أخوك يا أم زمام»

ويحاول أحدهم أن يدوبي فيوقفه آخر:

«قلنا ليك ألف مرة ما عايزين دوباي.. عايزين دلوكة.. أضربن يا بنات..»

فيقول آخر:

«آي والله.. خصوصا كان ضربتها الخادم ديك»

«ها يا زول ها.. الخادم دي المرة الفاتت كسرت الدلوكة»..

كل هذه الثرثرات كانت تدور حول الخزين، الذي كان كأنه غير موجود. فقد كان محلقا في سماوات بعيدة، ليس بإمكان أحدهم ممن حوله التحليق معه فيها.

كانت أصوات السكارى ترتفع وتنخفض.. ونذر معركة بين ود الزين والهنباتي تلوح في أفق الأنداية، التي بدأت من خلال فتحات سقوف رواكيبها الشمس، وهي تلوح في الأفق البعيد، تجرجر أزيالها نحو المغيب..

هتفت عشمانة السقايةبوجـه ود الزين والهنباتي، وهي تغمز لسابل الستر أن يسكت:

«الروقة يا جماعة..قلنا الروقة..

فيتدخل حمد الأعرج:

«أيـوة الروقة.. علي الطـلاق هسه ألبع واحد أشق راسـو.. ولا شنو يا الخزين؟

ويلتفـت للخزين الذي لم يكن يسمعه.. بينما يزمجر ود الزين في وجه الهنباتي:

«يا زول أبعد دمك مني..أنا كعب.. أنا بطال..»

فيتدخل سابل الستر:

«أقيف يا زول. حرّم تقعد. الحكاية شنو؟»

«الزول ده حرّم أنا شايفو عشرة عشرة من أمبارح..»

«عملت ليك شنو يا نصاب يا سلباط؟»

«علـي الطلاق يا جماعة الزول ده نحنا أولاد كاس من ما قمنا.. وأكلنا العيش والملح مع بعض. أمبارح إنتهز عدم جيتي الإنداية، فقام غمز للرسالة صاحبتي»

«لا حول الله! الزول إتلوم لوم كبير.. عيب عليهو والله»..

«علـي الحرام أنا ما غمزت ليها هي. أنا غمزت لحسنة، وكان مكضبيني

أسألوها»

«في ذمتك الكلام ده صحي يا حسنة»

«»هي الذمة حارة. النصيحة كدي.. غمز لينا نحنا الإتنين»

«كذابة. حرّم كذابة. يا خادم يا سكرانة يا ما عندك ذمة»

«يا زول إنت غلطان.. أطلب السماح من الراجل.. والعفو لله والرسول.. إنتو ناس أخوان وأولاد كاس»

إتــكأت منصورة على «الصريف» حول القطية التي تتوسط الدار، وهي تجيب أمها في حزن ولوعة:

«لقد قتلوا صانع الفخار»

لحظتهــا كانت كل ما مــرت به في حياتها مع صانع الفخار، يتراءى أمام ناظريها وكأنها وقائع حدثت للتو. حينها كانت روح صانع الفخار تحلق، عابرة سماء الدار. تلوح بإبتسامة آسية في وداعة الحزن!

في تلــك اللحظة المجيدة، الغارقة في حجب التاريخ البعيد. والتي أيقن فيها (صانع الفخار الحفيد) أن منصورة هي المرأة التي ظل يحلم بها.بعد أن فــرغ وقتها على يدي معلمه «الخزين ود طبلة» من تلقي كل ما يحتاجه المرء من معارف ضرورية بالحب والنساء، عندما تتفتق مراهقته للتو، عن غرائزها وتباغتــه بنهمها. قرر خطبتها. فأبتسم الخزين إبتسامة شاحبة ولم يفه ببنت شفه.

إحداهن قالت:

«إذا حلمت كرجل بصانع الفخار، فهذا لا يشكك في رجولتك، بل ينبئ عن سيرتك ومسيرتك فيالعمــل المتواصل الدؤوب، الذي سيعود بأفضل الثمار. أما إذا كان الحالم أنثى، فهذا يعني أنها ستنشغلبإمور تسعدها».

فالفخــار هو مهنة الأحــلام، في صراعها التليد مـع الصبر على ألم لا حدود له!

لــذا كان ألم منصــورة في تلك الأمسيــة البعيدة، الغارقــة في ظلمات التاريــخ. والتــي سبقت بليلة واحــدة، تلك الظهيرة المكفهــرة بمقتل صانع الفخار..ألمـا خارقا للعظـام والشرايين والأوردة.. تخلــل روحها وتغلغل في مشاعرهــا، التي لم تهــدأ صبواتها يوما! فقد طبع حزنهــا في تلك اللحظة، بالطابع الخاص نفسه لحزن صانع الفخار!

فصارت نهبا لهموم مبهمة، لا تدري مصدرها، حرمتها النوم. فنهضت مــن عنقريبها و أشعلت لمبة الجاز، التي أحــاط «قيطانها» سياج من الزجاج الدائــري الشفــاف. وأخذت تتجول جيئــة وذهابا.. هنا وهنــاك، في فضاء «راكوبة»القطية الصغيرة التي تتوسط الدار، المزروبة «بالطرور والشوك والقنا والعيدان والشراقن». بينمــا أمها الغارقة في نوم عميق، كانت هي الأخرى متناهشة بالكوابيس التي تخترق أحلامها من آن لآخر!

لحظتها كان يتولّد تدريجيا داخلها إحساس غامض.. متوتر.. من فرط هيمنته على كيانها.. كانت تشعر بجلدها يتنمل..وكل شعرة فيه تنبت على نحو مباغت منتصبة لوحدها!

خرجــت منصورة من قطيتهــا إلى فناء الدار. تستنشــق شيئا من هواء

الليل المنعش، الذي لم يبعث فيها ما ألفته من النشوة، التي إعتادتهاعندما يداهمهـا الأرق ويتآكلهـا السهاد،في مثل هذه الأوقـات من السنة. عندما تكـون الشمـس حامية طـوال اليوم.فنسائـم الليل كانت عـادة ماتنبيء منصورة، أن فجر الغد ستشرق فيه الشمس بنفس حنانها وشجنها وحنينها الأزلي المفقود!

كانت تلـك الليلة إذن، ودونا عن كل الليـالي التي مرّت على حياتها. ذات سمـوم وهـواء راكد،بطريقة غير مألوفـة في البلـدة القديمة.حتى أنها لاحظت ظهيرة ذلك اليوم، عندما ذهبت إلى سوق ود أمجبو، المجاور لمقابر البلـدة القديمة. أن شيئا مـا في وجوه الناس وأشكالهم مختلف عن المعتاد! لكنها لم تستطع تحديده!

وبـدت لهـا أوراق الشجـر متساقطـة بكثافـة، وعندمـا تحملهـا ريـح «السموم»تنشـر في الجو روائـح عطنة. هي مزيج من رائحـة البول والغائط والدخان والحريـق.. كما لاحظت أن طيور السمـبر المهاجرة، التي حطت علـى سمـاء البلدة،أنها قد جاءت في غير موسمهـا! وقدأشاعت في نفوس الأهـالي الطيبين، شعـورا غامضا بالقلق.. بدى لهـا كل ذلك ينذر بشيء كارثي غريب وشيك الوقوع!

في طريـق عودتهـا إلى دارها، أنستها أفكارها المبلبلـة، إلقاء التحية على الخزين ود طبلة، عندما مرت به وهو في مجلسه المعتاد. يتحلق حوله الناس، ليستمعـوا إلى حكاياته بنهم، بدى لهـا هو الآخر، نهما غير مألوفا!..سارت منصورة ببطء حتى دخلت مسكنها.

مـا بالنا نقفز قفـزا ونتعجـل الحكـي؟!.. سنأتي لاحقـا لنحكي عن أحلامها وأحلامـه، التي شطرها من شطرها شطرين. تاركا الفخار وصانعه، وذاكـرة الطين المشتركـة بينهمافي حيرة تامة. إزاء اللامبـالاة العامة، التي إحتلت فضاء البلدة القديمة على نحو مباغت!

في مراجعة جادين جانو الحفيد، لما حفلت به منحوتات صانع الفخار الجد. إكتشف أن الطين هـو القاسم المشترك، بين كل حضارات البلاد الكبيرة. فأهم السمات الثقافية المميزة لهـذه الحضارات، كانت أواني الفخار. التي على درجة رفيعة من الصقل. بالإضافة إلى الأواني الفخارية الأخرى، التي علـى هيئة حيوانات وأشكال مختلفة. كذلـك صناعات الحديد و الخناجر النحاسيـة. والمصنوعـات الخشبيـة المزخرفة في أشكال بديعـة. و الملابس المخيطة علـى قلانس جلدية، و المصنوعات الخشبية المطعمة بالعاج والمايكا وعناقريب الخشب و»القّد« التي تتميز بمساند من الصوف للرأس.

تقول النبؤة.. التي أكتشفت مبثوثة في إحدى مخطوطات صانع الفخار الأكـبر. أن روحـه وعقلـه سيولدان مرة أخـرى بعد مئـات السنوات، في صبـي يافع يدعى جادين، وهوليس مـن سلالة صانعي الفخار، لكنه مغرم مثلهمبتشكيـل الطين! كما أن روح وجمـال حبيبته (الكيرا) هي الأخرى ستتقمص روح (ست البنات) حبيبة المختار، الذي كشفت عنه النبؤة..

وتضيـف النبؤة.. أن مقتل صانع الفخـار الحفيد سيكون علامة فارقة، في تاريـخ وحياة البلاد الكبيرة. التي ستجد نفسها على حافة الهاوية، عند مفترق الطرق من كل أجزائها! عندما يصاب سكانها فجأة، بداء اللامبالاة.

إذ يصبحــون فجأة متبلدي الأحاسيس ومداهنــين.. باردي المشاعر وثقلاء مملين!..

جميعهــم: زعمــاء العشائــر والقبائل.. أصحــاب العمــل والعمال.. أهل الثقافة والفــن والأدب والسياسيين.. رجــال الدين وشيوخ ومريدي الجماعــات والطــرق والطوائــف.. أرباب المعاشــات.. الشبــاب والأطفال والنساء.. المزارعون..

حتــى أن المواليــد الجدد، كانــوا يولدون بلا ضمــير.. يخلون من تلك الــبراءة التي عرفــوا بها. هكذا جميعهمفي لحظة مــن اللحظات الغارقة في الأسى. المتلفعــة بالعتمة.إستيقظوا مــن نومهم،فوجــدوا أنفسهم يفتقرون لصفاتهــم التي توارثوها مــن أسلافهم عبر آلاف السنــوات..لا مبالين بما يجري حولهم دون أن يجدوا تفسير لما حل بهم؟

بإستثناء الطبقة الحاكمة والحاكم العام وحزبه وجيشه وشرطته وعسسه وقادة مليشياته الخاصة! لم ينجو من هذا الداء حتى الزوار العابرون لسهل البلاد الكبيرة، في طريقهم إلى مكان ما، في عالم يستشرى فيه داء الإحباط والقنوط!

لكن كان هؤلاء العابرون، ما أن يتمكنون من عبور البلاد الكبيرة، حتى يغرقــون في الأسئلة، حول حقيقة نجاة الطبقة الحاكمة، فتقودهم الأسئلة إلى شكوك لا أول لها ولا آخر!

في تلــك اللحظة بالذات ولد جادين جانو (الصغير).. الذي عند مقتل صانــع الفخــار، كان لتوه قد فرغ من تعلــم المشي والــكلام! إذن في تلك

اللحظة التي كان شعب البلاد الكبـيرة كله،قد أصيب بهذا الداء الكريه. لم يكـن ثمة ناجـين، ليشيدون حضارة الجنس البشـري في هذا الحزء من العـالم المنبوذ مـن جديد. فقط شخصـ واحد (وفقا للنبـؤة) هو شخصيا جادين جانو!

كان حاكـم البـلاد الكبـيرة سعيـدا جدا، بحالـة اللامبـالاة والتبلد العام،الـذي أصاب شعبه. لكن مع ذلك لم تفـارق مزاجه تلك العصبية، التـي عرفت عنه. بـل رغم سعادتـه المتوهمة. كان في حالـة أشبه بالجنون والخبال، وهو يحادث حراسه حينا وزوجاته أو وزرائه حينا آخر:

«هل أنا عصبي؟ عصبي! ربما.. لكنني لست ضعيفا!»

فيجيبه العسس ذات الإجابة المعتادة:

«كلا يـا سيدي. والحق يقـال أن حواسك في كل يوم يمـر تصبح أكثر حدة»

وتهمس زوجاته العديدات بحنو مفتعل:

«أنت لست ضعيفا.. بل تزداد قوة أكبر في كل يوم يمر يا حبيبي»..

في الحقيقة كان وجه الحاكم العام،لم يعد قادرا على التعبير عن مشاعره الخاصة، بتلـك التيارات المحتدمة في مكان ما داخله.إذ كان في كل يوم يمر يـذوي أكثر فأكـثر وتتكلس ملامحه.. ومع ذلك كان يقـاوم قدره بشدة.. متشبثا بالحيـاة. رغم أنف كل قوانين الطبيعة، والزمن وواقع البلاد الكبيرة الرث البائسـ. وكان لتكريس نزعة الحياة التي تشبث بها دون فكاك، كان

يتــزوج في كل عــام. ليخفي سرا شائعــا في أرجاء البــلاد الكبيرة! إذ كان الحاكــم العام في الحقيقة مثل كثــيرون من أعضاء نظامه وحزبه ينتمي لقوم لــوط! فكان يرسل الخطاب، إلى كل أنحاء البــلاد الكبيرة. ليأتونه بعروس بكر صغيرة! ظانا أن شعبه لا يعرف السر، الذي يحاول إخفاءه!

وكان في أرجــاء البــلاد الكبــيرة.. خصوصا إنداياته، مــن حين لآخر، يتجدد الجدل حول معنــى الدعارة في دولة نظام الحاكم العام، وبينما يركز رواد الإندايــات، علــى الدعارة كتجــارة سلعتها المرأة وزبائنهــا الرجالكان الأفنديــة يركزون على دعــارة الرجال، أي عرض الذكر لجهــازه التناسلي وجســده للاستخدام من طرف الغير مقابل مبلغ مــالي. وللمفارقة أن كلا النوعــين كانا قد تفشيا في نظــام الحاكم العام! بل وتعــداه بسبب انسداد الأفق واستشراء الفقر والبطالة.

لذا بات مألوفا في الإندايات أن يحكي احدهم:

«إن علاقتــي بجملة من النساء اللواتي تكبرنني سنا مكنتني من حل جملــة من المشاكل، وهي علاقــة لا ينتج عنها أي مشــكل، وممارستها غير محفوفــة بأي خطــر فتلكنالنسوة غالبــا ما يكن زوجــات لمسؤولين كبار في الدولــة وكل شيء يتم في السر، كما أستفيد، إضافــة إلى المال، من إشباع رغبتي الجنسية في أجواء هادئة ونظيفــة، فالنساء اللواتي أضاجعهن مقابل مبلــغ مالي، هن من النســاء الراقيات ورغم الفارق الكبــير في السن بيننا، فهــن لازلن يحتفظــن برشاقتهن ومعــالم الجمال لازالت باديــة، وغالبا ما أصل معهن إلى لحظة الذروة الجنسية، علاوة على الاستفادة المادية والعينية

إكراميات وهدايا قيمة.

وينبري آخر:

«إن دعارة الذكور أكثر سخاء ماديا»

فيعلق حمد الأعرج:

«أيـا يكن الأمـر، فإن دعارة الذكـور، مثل دعارة النســاء، تظل سلوكا وضيعاوأشد وطأة من دعارة النساء»

«لم تعد البلاد الكبيرة كما كانت، أضحت هناك شبكات تقوم بتسهيل لقاء الذكور والإنـاث والذكور والذكور والغنـاث الإناثوقد ساهم في ذلك بعضـ زوجات المسؤولين الكبار في نظام الحاكم العام والحزب الحاكم حتى أنهـم لم يعـودوا يأبهون كما في السابق أن تتـم في سرية تامة وفي فضاءات مغلقـة وحيـز ضيق، بعد أن أصبحـت مع سياسـات الخصخصة والتحرير «قطاعا» قطاعا كبيرا متمددا كالاخطبوط»

«حكـى لي زميلي في المطبعـة كان ينتمـي للحزب الحاكـم،أن البلدة القديمة، وحواضـر البلاد الكبيرة عرفت مؤخرا، جماعة من كبار المسؤولين في الحـزب الحاكم، دأبوا علـى تنظيم جلسات حميميـة وسهرات بحضور زوجاتهـم. فكانوا مـن حين لآخر ينظمـون ليالي حمراء مـن نوع خاص، وممارسة مجون نادر جدا..

كانـوا يعقدون لقـاءات بالتناوب في مقـر إقامة أحدهـم. وتعد الولائم وتـدور كؤوس الخمر المستـورد ولفافات البنقو وأنـواع المخدرات الأخرى،

في جـو تسوده الموسيقى الغربية والشعبيـة، فترقص الزوجات مع أزواجهن ومـع غير أزواجهن،وكلما نالت الخمور مـن العقول تزيد التصرفات مجونا، يحضن مسؤول زوجة الآخر وزوجة هذا الأخير تختلي بزوج أخرى، هكذا دواليـك، وأكد لي أن هذه الجماعة دأبت علـى تنظيم مثل هذه السهرات الفريـدة من نوعها، وهي جماعة تضم بعض المتنفذين في المليشيات الأمنية والجهادية ومندوبين ورؤساء بعض المصالح»..

وهكـذا – لصرف الشعب عن هـذا السر الخطير- مضى الحاكم العام ناشـرا الرزيلـة في الشعب،ممعنا في إدارة البلاد الكبـيرة على هواه،ومفتعلا الحـروب والمجاعـات والأوبئة، ليشغـل الناس عن قضايا البـلاد الكبيرة الحقيقية.ثـم أخـذ يقولب الشعب، بعد أن دمر قيمـه المتوارثة. فحول جزء كبيرا منـه إلى مجموعات تراقب بعضها البعضـ. وتراقب في الوقت نفسه ما تبقى من الشعـب. الذي أخذ يجمعه في مؤتمرات بين آن وآخر، يختمها بإعتقـال البعضـ وتعذيبهم ثم حرقهم في أفران ضخمـة، صنعها خصيصا لهذا الأمر!

وكان يزجـي وقت فراغه بلعـب لعبة الحرب، في الصعيـد ودار الريح. فيغتصب جنده النساء، بعد أن يتم قتل الرجال وحرق قطاطيهم وزروعهم! ونهب مواشيهم وتشريدهم في قبل الأرض الأربعة!

وما أن يبلغه جنده بهذه الأخبار، حتى يبدأ في شرب البنقو، الذي يغليه له طباخه الخصوصي، في براد صنع في الشرق الأقصى البعيد، خصيصالهذا الغرضـ. وبعـد أن «يسطل» تماما يضجع وينام، تطـارده كوابيس وخيالات

الأرواح المعذبة لضحاياه.. وضحايا الحكام السابقين من أسلافه،عبر عصور وتاريـخ البـلاد الكبيرة.فتنتابه الحمى ويئن.. يتـأوه.. ويعرق جسمه حتى يبتل فراشه بعرقه، الذي كانت له رائحة البول.

مـع ذلك كان الحاكم العام حساسا جـدا! فعادة عندما يتعب من فعل كل هـذه الأمـور، يختلـي بنفسه حتى يظـن الناس أنه قد فـارق الحياة. فتسكــن أرواح ضحاياه في مراقدها وتهدأ. ويشعر الشعب بالتحرر لبرهة،لا يلبــث أن يقطعها الحاكم العام، بإقتحام وحدتهم وعزلتهم، إثر الإعلان عن أحد المؤتمرات الفاشلة!

كان القادمــون من تخوم دار الريح ودار صباح العابرون للبلاد الكبيرة. قـد ترسخ في إعتقادهـم، أنهم كالعادة سيرون شعب سهـل البلاد المشرد، نائمــافي الـدروب الوعرة، والطرقالضيقــة غير الممهدة. التــي تحيطها البرك والمستنقعــات من كل جانب.. وهم يحلمون ببلاد سعيدة، تخلو من الحاكم العام وعسسه وجنده وحزبه ومليشياته الجهادية!

العابرون ترسـخ في ذاكرتهم أيضا مشهدا مكــررا: حزب الحاكميطارد الأهالي والمشردين، بالهراوات والعصى والأسلحة ويثخنهم ضربا وقتلا.

كان الحاكــم العام بوجهه القبيح وصوته الأجشـ وعيونه المركبة، التي تتحرك في كل إتجاه. كعيون الذباب الأخضر..هو المطلوب رقم واحد لعدالة العــالم، بــين حكاما قلائل. فالعالم نــادرا ما عرف حكامــا متهمين بجريمة الإبادة الجماعية، وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية في حق شعوبهم!

الزعيــم الطائفي الذي آلت إليــه مقاليد حكم سهــل البلاد الكبيرة،

قبـل أن ينقلـب عليه الحاكم العـام،ذات فجر مكفهـر.. في البدءرحب به الأهالي كثيرا، وأستبشروا بعهده خيرا. وكانوا يستمعون إلى خطاباته المملة، لساعـات طـوال في محبة. وقتهـا كان الخزين المستلق طـوال الوقت على «برشـه» في «الراكوبة» أمام «كرنكـه»، لا يفتأ يحذرهم مـن وعوده الزائفة. إلى أن إنقلبعـراب الإسلامويـين عليـه وعلـى بطانتـه لفسادهـم. ونصب الحاكـم العام بـدلا عنه. الذي ما أن مكن لنفسـه، حتى نسى كل الوعود والتعهدات، وفعل بشعب سهـل البلاد الكبيرة ما لم يفعل الحداد. فأخذ الناس يتذكرون مـن وقت لآخر تحذيرات الخزين القديمة، بعد أن تبين لهم أن لا خير في هذا أو ذاك!

وبعد أن عـاد المطاريد والنازحـين واللاجئين، من المنـافي البعيدة بعد عشـرات السنوات. وكونـوا في البلاد الكبيرة مستعمـرة جديدة، لإحياء ذكـرى الأسـلاف.. عـادت البلادالكبـيرة مرة أخـرى سيرتهـا الأولى! اللامبالاة!

«البلاد الكبيرة حالة ميئوس منها!»

يقول أحدهم فيغرق الجميع في الصمت.

كانـت اللامبالاة في سهـل البلاد الكبـيرة، تتفشى فتشمـل الشجر والحجـر والطـير والحشـرات والزواحف، وعمـوم الحيوانات. بـل وطالت حتـى رمـوز التاريخ الوطنـي الوفيات منذ عهـود سحيقة! فقـد تراكمت وقائـع أخطائهـم، وأنفجرت بوجه الجميع، لتمزق أراضـي السهل. دون أن تنتـاب أحدهم حيرة أو ذهـول أو أسى أو ندم، أو أي نوع من أنواع المشاعر

الإنسانيــة أو الوطنية فقــط: اللامبالاة والتبلد! كأن سهــل البلاد الكبيرة ليســ سهلهم، وكأن البــلاد الكبيرة ليست بلادهم؟! كانــت أحاسيسهم قــد تعفنت، وأرواحهم قد نخرهــا السوس بعد أن قولبهــم الحكام العامين والزعماء الطائفيين المتعاقبين، فلم يعودوا يشعرون بشيء!

كانــت المهمــة الأولى لصانع الفخــار فيما بعد هــي: أن يبرهن لنفسه ولهؤلاء، أنهــم لا زالوا يملكون إحساسهم بما يجــري حولهم. وأن بإمكانهم أن يهتموا بهذا الذي يجري، فيتمكنون من إصلاح حالهم وحال السهل!

لطالمــا خطر على بال صانع الفخار، منذ بدأ يعي حالة اللامبالاة والتبلد العام، في طفولته الباكرة، سؤالا ملتبسا. أيهما اللامبالي: هو أم سكان سهل البلاد الكبيرة؟ وهل اللامبــالاة وباء أم حالة عارضة أو متأصلة كالصفات الثابتــة؟ أم رغبة للتعويضــ النفسي، عند الفشل في الإجابــة على أسئلة البلاد الكبيرة الوجودية المحيرة التي يطرحها واقعها كل يوم؟

الفضــاء العام الذي كان يحيط بأحــد صانعي الفخار المتعاقبين في كل عصــر، حتى لحظة وقوعهم في قبضة عسس الزعيم الطائفي أوالحاكم العام، أقــل ما يوصف به أنه معقد ومتشابك الوقائع والأحداث. بدء به هو نفسه: جاديــن جانو.. بهويته المصاغــة في مجتمعه المحلي، في إطــار الهوية العامة للبــلاد الكبيرة. والتي كانــت أشبه بمجموع هويات متباينــة نشطة، داخل حقــل الهوية العامة، غير محددة الملامح! ثــم نظام التعليم العام، والمعارف التــي إستقاها مــن الخزيــن ود طبلة.. وهكــذا كانت تفاعــلات كل هذه العناصر داخله، لا محالة تفضي للأسئلة، التي شغلت باله وبال كثيرونغيره

في البلاد الكبيرة والجوار عبر العصور!

كان عندمـا لا يجد إجابة، يشعر بالإحباط. ويبـدأ مرة أخرى جادا في البحث عن إجابات، تهديء صبواته!

بعـد أن آل أمر البلاد الكبيرة للطوائف والجماعـات.. سطع نجم صانع الفخار، كخطيب أريب بين مفترقات الطرق والأسواق الصغيرة ومنعرجات الـدروب. فأصبـح له مريـدون في كل مكان يحل بـه.ولم تكن حكومات الطوائف والجماعات، بقادرة على فعل شيء ضده يوى إعتقاله، حتى تلك اللحظةالتـي قضى فيها عـراب إسلامويي البـلاد الكبيرةعليها.ذات فجر معتم!معلنا عن بدء عهد الحاكم العام!

وقتهـا كان صانع الفخار في ذروة كفاحـه، ولم يعد بحاجة لإرتياد خلوة الخزيـن ود طبلـة، التـي فارقها منذ وقت بعيـد بعد أن نهل مـن معارفه ما نهـل.. وهو الوقت نفسـه الذي فجرت فيه الجماعـات والطوائف المخلوعة من قبل العراب و الحاكم العام، حروبا أهلية طالت كل أطراف سهل البلاد الكبيرة، ووضعـت صانع الفخار بمواجهة أكبر أسئلـة حياته.. سؤال البقاء والإستمرارية على قيد الحياة.

فمـا أن تم إطلاق سراحه حتى هـرب إلى غابات دار الريـح ووديانها. يحرض الأهالي على الثورة ضد الحاكم العام، الذي كان بدوره قد أعلن عن مكافأة كبيرة، لمن يرشد عنه. وقتها كان التعب والإرهاق قد نالا منه،بسبب هروبـه المتواصل. وعـدم تناول ما يكفي من طعام وشـراب، فسقط مغمى عليه في دغل من أعشاب النال، تحت إحدى أشجار القمبيل. على أطراف

إحدى بلدات دار الريح. وعندما أفاق، وجد نفسه مغلولا بالسلاسل وحوله الجند، وجموع الأهالي محتشدين!

وفي الليلة نفسها بعد أن صلب وأحرق، وطافت روحه بأركان وفضاء البلدة القديمة. خسف القمر فخرج الأهالي يقرعون على الطبول يطلبون الرحمة! وثارت ضوضاء داخل أنداية مستورة كحل الليل والإندايات المجاورة، فهرع حمد الأعرج يسأل عن الخبر:

«الحكاية شنو يا مستورة يا خيتي»

«ماك سامع؟ القمر «خنق» والله الزمن ده الناس عمايلن بقت كعبة. خلو زيارة الفقرا وخلو ضبح الكرامة»

فقاطعها حمد الأعرج:

«أبدا والله السبب منكن إنتن ديل ستات المريسة»

«سجمي! كيف مننا نحنا يا حمد؟»

إنتن الزمن ده قاعدات تزيدن المريسة موية، عشان كدي القمر خنق، والله يستر بعد ده على الشمس»

في النهار التالي لخسوف القمر، لم يكن للإندايات سيرة سوى ما دار بين السرة كحل اللسل ومحمد الأعرج.

ووفقا لما ذكره زميله عامل المطبعة للخزين، أن خسوف القمر كان بسبب الفساد الذي إستشرى في البلاد الكبيرة، وأخذ يتآكلها كما تأكل النار الهشيم!

وهكـذا أخذ يحكي لـه ما يدعم رأيـه على خلفية تاريخـه السابق في الحـزب الحاكم، أن زوجة أحد الضباط الكبار تعرفت على أحد زملائه من الجنـد الذين يستدعون لحراسـة مناسبات الضباط،وتطـورت علاقتها به، فأصبح في غياب زوجها في مناطق العمليات، يعاشرها معاشرة الأزواج، تارة في بيتها خلسة، وأحيانا كثيرة خارجه.

وكان من الواضح أنـه يتقاضى مبلغا ماليا عن «مجهوداته» فظن أن من حقه طلب المزيد بعد أن عانى الكثير من مهمته كحارس مناسبات ومكلف بمهام أخرى ترهقه كثيرا!

الأمـر الـذي أدى إلى حدوث مشاجـرة بين العشيقـين، تأثرت زوجة الضابـط بالحادث وغضبت غضبا مستطيرا علـى خليلها فانقطع حبل الود بينهما، إذ شعرت بأنه خدش «كبريائها» ولم تنس له ذلك، فتم العثور على جثنه التـي إخترفتها عدة رصاصات، في السوق الصغير الورا، خلف مقابر ود أمجبو! وكالعادة في مثل هذه الحالات قيدت القضية ضد مجهول!

11

بعـد أن يفـك حمد الأعرج ريقه بعبـار مريسة، من إندايـة السرة كل صباح .يتوجـه إلى سوق ود أمجبو. حيث يلتقـي برفاقه «السكارى» وتدور بينهم الحوارات المعتادة، إذ يقول عبد الله أب فاطر:

«ويـن يا زول علي الطلاق، الليلة حليمة الفدادية، عندها مريسة تسكر الحجر. مريسة حمرّة زي عين الديك.. ها ها ها...»

«أقيـف يا زول علـي الطلاق، أنا بشرب لي أربعـين سنة، ما شفت زي مريسة مستـورة كحل الليل. حرّم فكيت الرِّيق بفـرد قرعه، وهسه شايف الناس رِّهاب رِّهاب، وأضاني طِرشت تب»

«ها زول. حرّم تندم. وتقول ضرّاني. أرح معاي»

«عليك يمهل وعلينا يسهل – كل زول بيعجبو الصّارو»

ويقضـي حمد الأعرج حاجياته في السوق سريعـا وهو يسعى لإرسال إبنه بها إلى البيت:

«الأمين أخوي وصل معاك الولد ده البيت»

«خبارك إنت متأخر ليه؟»

عايز أمشي أجز الحمار. وبعدين أغشى الفقرا داير لي حجاب»

«أوعك يا عم حمد من «الهناية» ديك..فيمرر يده على لحيته وهو يقول مستنكرا:

«أبوك يا محمد بعد العمر ده كلو»

«خير، في وداعة الله. أركب يا ولد في الكارو»

وبينما يمضون بإتجاه الحلة يتخذ هوطريقه متسللا، إلى إنداية السرة كحل الليل، في أطراف البلدة القديمة بعيدا عن سوق ود أمجبو.

كلمة «ود أمجبو»التي إقترنت بإسم الكنيسة العتيقة عند مقرن النيلين، هي في الأصل كلمة «الجب» ذات نفسها، بمعنى البئر! فود أمجبو فضلا عن كونها محل مورد ماء أهالي البلدة في العصور القديمة. فهي في العصور الحديثة مقابر أولئك الأسلاف، الذين كانوا يردون إلى بئرها للتزود بالماء! وهكذا بعد أن غادر المستعمرون الإنجليز سهل البلاد الكبيرة، أصبحت ود أمجبو وصفادقيقا لهذه البلاد الفاشلة!

على أنقاض المعابد النوبية القديمة أنشأ يهود البلدة القديمة، على أرض ود أمجبو معبدا كبيرا. حلت محله المبان الجديدة التي توسعت فيها،كنيسة المقرن العتيقة، بعد أن هجر اليهود البلاد على عهد الحاكم العام الثاني، بعيد الإستقلال، إثر تآمر الطوائف و الحكام العامين حتى على مقابرهم! التي قاموا بمسحها عن ظهر الوجود، وأنشأوا محلها الحوانيت والمطاعم ومحال المرطبات!

إذن كنيسة ود أمجبو التي أنشأها الخزين الجد، والتي إنطوت ذاكرتها

على ماضيهـا النوبي واليهودي،في ماضيها العريـق، نهضت على مساحة واسعـة مـن أراضي ود أمجبو، وتوسعت أكثر، علـى عهد الحاكم الروماني نـيرون في القـرن الأول، بعد صعـود المخلص يسـوع بإسبـوع واحد، إلى السماوات العلي.

مخطوطات صانع الفخار تقول أن ود أمجبو هو إسم الخزين الجد نفسه! قبـل أن يعرف بإسم الخزين ود طبلة. فيذلك الزمان السحيق. والذي كان قـد كتب أول مخطوطة، ظلت مرجعـا مهما في العصور اللاحقة، عن تاريخ البـلاد الكبيرة. ما يفسر كثير مـن العادات والتقاليـد، التي لازمت أهل البلاد الكبيرة حتـى الآن. كتعميد المختونين والعرسان والنساء في أربعين النفاس،في النيل. والإحتفاء بسعف النخيل، ورسم الصليب بالكحل على جبين المواليد الجدد.

فقـد كان لكنيسـة ود أمجبو،تأثيرا كبيرا على لاهـوت البلدة القديمة، وفي تكويـن شخصيـة سكانها. بتكريسـ قيم التواضع والمحبـة والتسامح والعمـل الجماعي. إذ كانت مدرسة قائمـة بذاتها، كما أشارت مخطوطات صانع الفخار. حتى أن قديسين كثر من كل أرجاء المعمورة، كانوا يحرصون علـى زيارتها، لتبادل الأفكار مع قسستها.حتى أن بابا الفاتيكان، الذي يتم إختياره بعد موت أو عجز كل بابا، كان لا ينصب ما لم تتم مراجعة كنيسة ود أمجبو.

برع قسسة كنيسـة البلدة القديمة، في إنشاء الترانيـم وصناعة الأياقين وتأليف الموسيقى وصناعـة الأنسجة،والمشغولات اليدوية. الأمر الذي قاد

مدرسة الكنيســة،إلى تطوير اللغة»المرّوية»من لغــة شفاهية إلى لغة مكتوبة، تزامــن مع ذلك إتباع أسلوب في الحفر على الخشب، ليستخدمه المكفوفين في القــراءة والكتابة، قبل ميلاد السيد برايل بأكـثر من خمسة عشر قرنا! وهكذا مــع تحويل اللغة «المروية» إلى لغة مكتوبــة، ظهرت العلوم والآداب، التي تلغفها العالم بشغف،قبل أن يقف طويلا،ليتأمل الطابع المأساوي لحياة البــلاد الكبيرة، عبر التاريخ! كمــا عبرت عنه فنون مدرســة كنيسة مقرن النيلين! وهكذا كانــت كنيسة البلدة القديمة، تشعــر دائمًا بتفويض إلهي، كي تُصلِح الخلاف المعقد بين كل الكنائس والأديان.

وقــد قيل عن أساقِفــة البلدة القديمة،أن التحــولات التي طالت البلاد الكبيرة، بدأت مع إهمال القسسة للإعتكاف والتعبد والتأمل. وإنشغالهم بالإجتماعــات واللقــاءات بالسياسيــين أســلاف الثلاثة الكبــار! إذ بدأ دورالبلــدة القديمة الريادي عندئــذ يتقلص. كانت بداية هــذا الأمر عندما إبتــدأ الحاكــم العام الجد التدخُّل في شئون الإيمــان بالكنيسة. وقد كان رد أساقفتها في البدء:

«أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله»

منذهــا بدأ الحــكام العامون يخوضون حربهم المقدســة، لثني الكنيسة عن عزمها. فأعتقلوا وعذبوا ونفوا الكثيرون من القساوسة. الذين لم يقابلوا ذلك بمقاومة عنيفة! إذ كانوا يحرصون على التكرار في مخاطبة رعاياهم:

« رُدّ سيفــك إلى مكانــه. لأن كل الذيــن يأخــذون السيــف بالسيف يهلكون»

وهكـذا -منذها- مضى الحكام العامونفي حربهم الشرسة، التي بلغت ذروتهـا في إتهـام كنيسة البلـدة القديمة،بإتبـاع تعاليم الديانـات السابقة للمسيحية بالتالي الهرطقة!

ومضـوا يخططـون لإحتكار الديـن لأنفسهـم، بدلا عـن القساوسة. ليتمكنوا من تكريس حكمهم في البلاد الكبيرة إلى الأبد!

فقادتهم أفكارهم الشريرة إلى أن هذا لن يتحقق، إلا بأن يُبطلوا القوانين المستقلـة للكنيسة، التي كان قساوستها يصرون على أن تكون منفصلة عن الدولـة. وبالرغم من كل هذا، فقد ظـلّ قساوسة كثيرون مخلصون وثابتون على إيمانهم بفصل الكنيسة عن السياسة.

وإذا كان ما حدث مجرّد مؤامرة من الحكام العامين، الذين تعاقبوا على البلاد الكبيرة،كعقاب للكنيسة لرفضهـا الخضوع السياسي. فمن الجانب الآخر أحنى قساوسة كثر رؤوسهم لعاصفة الحكام العامين! وأصبحوا علماء لهـم. يبررون لهم الجور والإستبـداد ويمدونهم بالزرائع! بل وحولو الكنيسة إلى أضخم مركز إستخباري شهده التاريخ من خلال «الإعتراف»!

فخر كنيسة البلدة القديمة كان دائما هو الإضطهاد، الذي بدأ قبل قرون طويلـة. عندما إسْتُشْهِد القديس المُبَشِّر الخزيـن الجد، بعد جَرّه من قدميه عن طريـق جنود الحاكم العام،الذيـن جابوا به كل شـوارع البلدة القديمة وزِقاقاتها. مفتتحا عصـور إضطهاد القسسة وأهالي البلاد الكبيرة المؤمنين! علـى يد كل الحُـكّام العامين المتعاقبين. لدرجـة أن قساوسة كثر، كان يتم تعذيبهم ونفيهم حتى على يد أخوتهم المسيحيين.

عندمـا بدأ العرب يتوافـدون للمرة الأولى، وبعـد أن إحتلتت جيوش الأتـراك والمصريين سهـل البلاد الكبيرة،في المـرة الثانية،على عهد خلافة الأتـراك. ومن ثم تلى ذلك إحتلال المصريـون والإنجليز للبلاد الكبيرة في المـرة الثالثة.. أعلنت هذه الأحداث أن ثمة تغييرات كبيرة وحاسمة، على وشك الحدوث في البلاد الكبيرة!

بهدوء، ولكـن بإنتظام، تغيَّر وجـه البلاد الكبيرة الغالِـب، وأصبحت غالبيتهـا إسلاميـة في مطلع القـرن التاسع عشر. وهكذا وجـد المسيحيون وأصحـاب الديانـات الأخرى، أنفسهـم مواطنون من الدرجـة الثانية! في سياق التهميش العام، الذي تم عبر سلسلة معقدة من التحالفات وعلاقات المصاهرةوالإجراءات والقوانين، عبر تاريخ البلاد الكبيرة.

في الأيـام التـي تلـت مقتـل صانـع الفخـار، والإختفـاء الغامضـ للخزين،كانـت البلـدة القديمة لا تزال متلفعة بكل أنـواع المشاعر الغريبة! فقد بات هواءها مختنقا وتربتهـا قاحلة،وأشجارها جافة متساقطة الأوراق.. سماءها قاتمة. وكل شيء فيها يفـوح بروائح التحلل والعطن.. حتى الناس في دروبها الضيقة، كانوا بدلا عن التحايا، يتبادلون السباب والشتايم البذيئة المقذعة.

كما أن أسراب الطيور المهاجرة،التي جاءت على غير موعدها- فقد كان الوقت نهاية الصيف «القيطوني»- الذي إتسم به هذا الجزء من كون مهدد بالزوال.. غيرت رأيها وهاجرت مرة أخرى، عائدة إلى موطنها!

كانذلك الصيفالصاهد، الذي شهدت إحدى ظهيراته المنصرمة، مقتل

صانــع الفخار،عطنــا.. متسخا.. مخيفا وغريبــا إلى أقصى حد،دونا عن كل فصــول الصيف، التي تعاقبت علــى البلدة القديمة، عــبر تاريخها العريق. حتى أن مقابر «ود أمجبــو» المجاورة للسوق «الورا»، في الصبيحة التي تلت مقتل صانع الفخار، فوجيء بها الأهالي كلها منبوشة! وأرماث أسلافهم من الموتى الأماجد، قد إختفت في غموض تام! دون أن يجدوا لذلك تفسيرا!

واللافــت للنظر أن ثمة تغييرا لم يطرأ على حيــاة الإندايات. بل إزداد عدد روادها الذين كانو يجيئون من كل فجاج البلدة القديمة، لفض إكتئابهم مؤقتــا، بالغزل في نساء وبنــات بعضهم البعض، عندما يبــدأ أحدهم بمدح المريسة والمزّة، فيعقبه الآخر:

«ينصر دينك يا مريسيلا.. أهو كده ولا بلاش»

فيرد عليه آخر:

«هو في حد يقدر يعمل البن زي مريسيلا»

فيقاطعه آخر:

«الــكلام موش البن.. الــكلام مريسيلا ذاتها.. أحــب الله ديني أنا يا الأعرج..

فيبتسم جبارة الهنباتي ويقول:

«أموت أنا في مريسيلا، وخدود مريسيلا، وعيون مريسيلا»

وسابل الستر زوج مريسيلا جالس لا يتفوه بشيء، كأن شيئا لم يكن! فتقطع عليهم عشمانة الساقية حديــث الغزل والضحك العالي والخفيض،

الــذي تشوبه خشخشة الصدور، بتأثير تدخــين التبغ القمشة، الذي كانوا يلفونــه أثناء جلستهم، بأيــادي راعشة،لا تعرف أصابعهــا الناحلة الثبات، إلا عندمــا يمسك أحدهم ورقة لف التبغ، ويبرمهــا وأعضاء شلته من حوله يتصايحون:

«أهو كدي إنعل أبو البحاري ذاتو»

«وحياة سيدى الحسن تلف واحدة تاني»

«الله يحرق ميتينكن. أنا مكنة. أما كلام فارغ»

ينصر دينك، إنت مكنة ونص»

«بطل الكلام الفارغ يا شيخ، وأدينا كاس»

ويبــدأ التــوم ود أب قرن في ســرد حكاية جديدة مــن حكايات البلدة القديمــة، فبعــد أن يتنحنح يقول لــلأذون المشرعة الظمــأى لهذا النوع من المسامرات:

« حــرّم الناســ الليلة في ســوق ود أمجبو، ما عندهــم كلام غير الخفير وحرمه»

«ياتو خفير؟»

«خفيرنا السابق للجوار، قبال تعديلات الحاكم العام الأخيرة»

فيضحك حمد الأعرج:

«حــرّم كلامك صــاح، سفاراتنا برا كلها مع نظــام السجم ده أصبحت

خفــارات.. المهاجرين من البلاد الكبيرة في الغربــة، يموتو من الجوع والبرد وما في خفير واحد يجيب خبرهم»

«الــبرّا براهم الكاتلهم الجوع والبرد.. الناس الجوه ذاتهم كل يوم يومين جثتين وتلاتة من الجوع»

«الملعونة مالها؟»

زوجــة الخفير المعني عرفت بين ملأ البلدة القديمة، أنها لا ترتدي عندما تزور البلاد الكبيرة في الإجازات،سوى اللباس المحتشم، الذي يليق بزوجة مسئــول يمثل البلاد الكبيرة في الخارج، لكن بمجــرد أن تضع قدمها خارج البلاد لكبــيرة، تنسلخ عن جلدها وتعود امرأة أخرى غير تلك التي تعرفها البلدة القديمة!

فعنــد مصب النهر في الجوار، تتفنن في ارتــداء الثياب القصيرة الضيقة الشفافــة، التي تكشف كل شــيء دون أن تخفي أي شيء! وحسب أحد العاملــين في الخفارةالــذي بأمر من زوجها كان يرافقهــا لحراستها وخدمتها وتسهيل كل شيء لها، يقول التوم ود أب قرن:

«كانتتتتصــرف وتبدوا أكثر «تحررا» و «انفتاحا» العاهرات، بل تقوم أحيانا كثيرة بممارسات لا تقبلها العاهرات!

إذ تقضــي سهراتها في العوامات التــي في النيل والكباريهات والملاهي المشهــورة باستقبالالمثليــات، كمــا أنها تفضــل النزهة في بعضــ الشوارع التاريخيــة في وسط البلد، التي تعتبر مكانــا مفضلا للمثليات، وفي جعبتها

سلسلة من المغامرات في أكثر من مكان»

ومـع ذلك كانت دموع نســاء البلدة القديمة الشريفــات، عندما تطرق مثل هذه الحكايا أذونهن، تفيض مرارة،وتصبح نهرا هادرا،لم تكن دموعهن مجــرد دموع فحســب.. إذ كانت تخــدد في الأرض،طرقــا جديدة لشعب البلاد الكبيرة، الذي هيمن عليه الحزن العام!

III

في تلـك الظهيرة التــي أحرق فيهـا صانع الفخـار في فنـاء الكنيسة. كانت زوجـات الحاكم العام العديدات، بإستثنــاء صغراهن،تفقن للتو من نــوم عميق. كن لحظتها يشعــرن، كما لو أن سعــادة الدنيا كلها تجمعت في أحــلام ليلــة البارحة. التــي هي ذكريات سريــة مع عشاقهــن العديدون. وهكــذا مضتصغراهن،تدغدغ صدرها وفخذيها بحنو، ليندفع الدم حارا في شرايينها،فترتخــي أعصابها المشدودة، مع الفرقعــة المكتومة لغصن النيمة، التي ناءت بأسراب الطيور المهاجرة، التي كانت قد قررت الرحيل!

لحظتها إمتد شعاع الشمس،مخترقا غشاوة السماء الغائمة،عابراخلال نافـذة غرفتها،فأحـدث في نفسهـا، تأثـيرا غامضـا. أشعل فيهـا المخاوف والهواجـس والظنون. إذ بعد ذلكخيّم على فضــاء البلدة دخان أسود! نبع من مكان مجهول في الفضــاء الرحيب.فشدتصغرى زوجات الحاكم العام صدرهــا بتكاسل، تحــاول أن تقاوم في تثاؤبها المتكرر،بقايــا نعاسها، دون أن تكترث!.

كان كل شـــيء حولهــا لا يزال عبقا بأحلامها الليليــة الجريئة: الضوء الخامل،وحفيــف أوراق شجــيرات الجهنميــة الحمــراء، في باحــة القصــر الرئاســي.. خرير الجدول الذي تتكــيء على شفته، غرفة أحد الحراس من عشاقها السريين، وآثار البلل التي جفت على أوراكها الممتلئة!

الطريقــة التــي أعدم بهــا صانــع الفخار، رسمــت في أذهــان الأهالي، إستفهامــات لا أول لهــا ولا آخــر، كان في مقدمتها طبيعــة علاقتهم بهذه البــلاد.. البلاد الكبــيرة. وهكذا قادت هــذه الأسئلــة دار الريح، لتصبح مستودعا ضخما للسلاح.

وفيما شهده ذلك العصر أيضا، الإنتعاش الرهيب والرواج الكبير لهذه التجارة. كمــا شهد شيوع القتل والحروبات والدمــار والخراب، الذي طال كل شـــيء. بعد أن إمتلأت دار الريــح بالسلاح،حتى فاضت بكل أشكال وألوان المليشيات والغزاة من دول الجوار!

كان واضحــا أن دار الريــح تتعرضــ لمؤامرة محليــة – إقليمية ودولية مربكة! فقد أصبح الأهالي الذين فتنهم الحاكم العام، ليقتلو بعضهم البعض منقسمين.. يميزون أنفسهم وفقا لهوياتهم وسحناتهم وعقائدهم الضيقة! لم يعودوا يشعرون بإنتمائهم جميعا لسهل البلاد الكبيرة، بذات القدر!

في مثــل هذا المنــاخ اللعــين، إكتشف الخزيــن الحفيــد، أن الأشكال المتعددةللجماعــات والطوائــف، قــد أستغلــت لتحقيــق مصالــح إثنيــة وطائفية،تتعلق بمجموعة الحاكم العام والثلاثة الكبار وأقرباءهم في الجماعات والطوائف .وهكــذا كانــت تلك نقطــة البداية للخزين الحفيــد، ليبحث في الإجابة عن سؤال الذات.

وهكذا إعتزل الخزين الناس، وأختفى في وديان دارالريح، ولم يظهر إلاو جند رئيس الوزراء المخلوع يعتقلونه على خلفية تظاهرات عارمة، قادها صانع الفخار! لكن ما أن طلق سراحه بعيد الإنقلاب على رئيس الوزراء، حتى

مضى يحرض الأهالي إلى أن نال منه التعب، وأعتقله الإنقلابيون!

عندما بلغ صانع الفخار الحفيد سن المراهقة، حاول أن يجيب عن الأسئلة التي كانت تقض مضجع الخزين، ولمعرفته بأن شعب البلاد الكبيرة لا زال يؤمن بالدجل والشعوذة، قام بكتابة رقي وتعاويذ ب»العمار» على لوح خشبي، ثم غسله في النيل بالمريسة. ليشرب منه أهل السهل.. ثم فعل الشيء نفسه في وديان دار الريح، حتى يتأكد أن ما من كائن حي في البلاد الكبيرة، إلاو قد شرب من هذه الرقي والتعاويذ المذابة في المريسة و الماء!

وهكذا فوجيء ذات صبيحة باكرة، ريانة بدعاش طمي النيل و»همبريب» الوديان، المشبع برائحة «السعدة والسناسنا وصندل الردوم» بأرض سهل البلاد الكبيرة من أقصاها إلى أدناها، ترتج وتتزلزل بإيقاعات هي مزيج من «الكمبلا والمردوم والتم تم والجراري والشاشاي» و..إيقاع واحد ومتوحد يتخلله غناء عذب بكل لغات البلاد الكبيرة! كان السكان كأنهم يفيقون للمرة الأولى منذ آلاف السنوات!

منذ أن سمع جادين جانو بتلك النبوءات البعيدة، التي هي في الحقيقة جزء من تاريخ البلاد الكبيرة، وسيرتها ومسيرتها. ظلت تداهمه ذات الخواطر، التي كانت تداهم صانعي الفخار. كما كان هو يتخيل خواطر صانعي الفخار!..

فصانع الفخار الحفيد منذ طفولته الباكرة، هيمنت على حياته تلك الرؤى الغامضة، عن الحياة والموت والكون وأسئلته المعقدة!. الرى ذاتها التي راح في غيبوبتها لثلاث أيام عندما أنجبته أمه للتو وقتها!فانهمك تحت

وطأتها–عندما كبر– مشكلا الطين، أشكالا لا تخلو من نبؤات محتملة. أسهمت في تشكيل حياته وحياة من حوله. بل وحياة «جادين جانو–الحفيد»، الذي كان يتراءى له خلال الوجوه الملتفة حول الخزين!

من عاداته التي لم يخالفها يوما واحدا منذ طفولته الباكرة وتسفاره. حتى اللحظة التي سبقت مقتله حرقا في ساحة كنيسة «توتي»العتيقة المطلة على مقرن النيلين.. هي وقوفه عند كل صباح.. عند شروق الشمس. متأملا سهل البلاد الكبيرة الرسوبي المنبسط، على مد الأفق المترامي، بإنحداره الطفيف.

كان يرى بعين خياله كل المرتفعات التي تتخلله: الغابات، الجبال، التلال، القيزان والجروف الصخرية.. كان يرى النيل الذي يشق السهل قسمين، كفلقتي نواة واحدة. فيقول في نفسه كمهووس بالفخار:

«ترى كيف تكونت هذه التربة، التي سقتها دماء الأسلاف عبر آلاف السنوات؟!..

التربة الرملية في إقليم الصحراء وشبه الصحراء، في السافل ودار الريح؟.. بهشاشتها وإفتقارها للخصوبة.. ترى كيف تكونت هذه التربة الطينية في الوسط ودار صباح، الغنية بالخصوبة والجمال الأسمر.. ترى كيف تكونت هذه التربات الحديدية الحمراء، منخفضة الخصوبة والقابلة للتدهور في الصعيد..

وهذه التربات الرسوبية السلتية على ضفاف النيل.. وأشقاءه من أنهار دائمة وموسمية.. ووديان تتخلل سهل البلاد الكبيرة الواسع..الممتد..

بخصوبتهـا العالية بسبـب الطمي، الذي يجددها كل عـام.. وهذه التربة البركانيـة الخصبـة في دار الريـح، ومـا تمثله مـن لغز محير في عـالم الطين والخصوبـة؟!!.. يتنهـد الخزين وهـو يتجرع من برمة الأربـاب كاسا مترعا بالمريسة مربوطة الزبدة:

« كان صانع الفخار إذن مغرما بالطين وكل ما يتصل به!»

فيتردد في فضاء ذاكرته صوت منصورة:

«لقد أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة»

مـا أن تناهى إلى مسامـع الخزين، خبر مقتل صانـع الفخار. حتى شعر كأن نفحـة قوية من اللهب، تشوي جلده و تحرق عظامه. لحظتها فقط.. فقط لحظتها.. شعر بكم هو طاعنا في السن.. ووحيدا وبائسا إلى أقصى حد.

في الحقيقةالخزيـن الـذي مـا أن بلـغ سـن الأربعـين، منـذ عشرات السنوات.حتـى توقف تيار الزمن، ولم يعد العمر يتقدم به ولا يوما واحدا. يشعر الآن بنفسه، كقلعة قديمة قاومت كل آثار السنون لتنهد وتتهدم الآن.. الآن فحسب!

عاد بذاكرته إلى الوراء.. أيام صباه.. عندما أرتحل إلى دار الريح، لينهل مـن معارفها، وعاد بعد سنوات طويلة، لينبهـه أهالي البلدة، الذين وجدهم قـد طعنوا في السن، أنه كما هو لحظة فارقهـم!.. كانه لم يلبث بعيدا عنهم سـوى يومـا أو بعض يـوم.. كأنه خـرج بالأمس فقط وعـاد! ومنذها أخذ يلاحظ، الخطى البطيئة لسنوات عمره، إلى أن توقفت بإتئاد عندما بلغ سن

الأربعــين! الآن يشعر بأن كل السنوات، التــي أغفلها الزمن تتجمع لحظة واحدة، فتخترق عظامه ووحدته وأساه! فيتقوس ظهره ويحدودب!

لم يتــزوج الحزيــن ودطبلة مطلقا كما كان شائعا عنــه، لكن في الحقيقة لم يكــن ذلك صحيحا! .ربما شاع ذلك بسبب نــذره حياته لمريديه، الذين يتحلقــون حوله كل يــوم، لينهلوا من معارفه الواسعــة. لا تتغشاه الوحدة، حتــى بعــد أن ينفضوا مــن حولــه. إذ يخلفــون وراءهم أطيــاف حكاياته وأسئلتهــم، التي يظــل يسامرها، إلى أن يطل يوم جديــد، فيجيء المريدون مرة أخــرى ليلتفوا حوله.. كان مجلسه عامرا دوما بالأصدقاء و البصاصين والعسس والمجاهدين المزعومين وأشباههم!.

في اللحظــة التي جاءه فيها خبر مقتل صانــع الفخار، كان للتو قد أنهى ترتيبــات زواج صانع الفخار مع أم منصورة. صــرف المريدين الذين تحلقوا حولــه بإشارة من يده، وأختلى بنفسه لحين مــن الوقت. قبل أن يمضي إلى إنداية السرة كحل الليل لا يلوي على شيء!

في اللحظــة ذاتها كانت منصورة تستعيد قلق و أرق ليلة البارحة! وتلك المشاعــر الغامضة التــي إنتابتها.. الآن.. وعلى حافــة الموت، تكشفت كل المشاعــر الغامضة عن مكنوناتها، وفارقها ذلك القلق الذي إستبد بها لوقت طويل، بعد أن تسلل إلى أعماقها، و أحكم حصاره على مشاعرها.

كان وجه منصورة يستحيل الآن، إلى كيان جامد. ليس له شبيه.. ليس بالإمكان عــبره قراءة حقيقة ما يجول في خواطرهــا الملتهبة. إذ كان وجهها لا يفصــح عن شيء محدد البتة، مع أن كل من رآها لحظتها، كان يعلم أنها

تخبــيء خلف جموده، آلام وعذابات من المستحيل كبحها! كما لو أنها قد حلــت محل قلبها، وراحت تضــخ في شرايينها الأسى والعذاب، اللذان لا حدود لهما.

كانــت منصــورة تعلم أن من هو مثــل صانع الفخــار لا يخشى الموت، وكذلــك كانت تعرف منذ وقت بعيد، أن هذا اليــوم آت لا محالة، وأن لا مفر منه.

«لقد فعل كل ما ينبغي عليه فعله»

همســت لنفسها.. وهي تعــزي نفسها، في أنه لم يمضــ إلى حتفه، دون أن يخلــف للقادمين آثاره..فالمنحوتات التي خــط عليها صانع الفخار رموزا معقدة، هي الشفرة لهويــة البلاد الكبيرة، والتي تم التواطوء عليها من قبل الحكومــات المتعاقبة المسماة وطنية، وغالبية أحــزاب البلاد الكبيرة، وعدد كبير من المثقفين والساسة وقــادة الرأي العام. إلى جانب منظمات طوعية، وأحزاب دينية إحتيالية،وطوائف إشتهرت بإستغلال الدين في السياسة؟!

جادين جانو المهووس بجمع أعمال صانع الفخار، وكشف أسرارها على المــلأ. بدأ رحلــة بحثه عن منحوتات صانع الفخــار الأكبر.. المتفرقة في كل أنحاء البــلاد الكبيرة، بالبحث عن ذاته والتعــرف عليها، بحيث أصبحت ذاتــه هي نقطة البداية، لسبرأغوار سؤال الهويــة المشفر في منحوتات صانع الفخــار، التي في الوقت الذي خلى المتحف الوطنــي ودار الوثائق المركزية منهــا تماما، تفرقت ما بين الخزائن الخاصــة للسياسيين الفاسدين، ومتاحف العــالم الواســع، لكون مهدد بالزوال في أية لحظــة! نتيجة الحروب والأوبئة

وكوارث الطبيعة، وفسادالحكوماتوإستبدادها!

أكثر ما لفت نظره.. تلك المخطوطـات القديمة، التي تعود بتاريخها، إلى الوقت الذي كانـت فيه اللغة «المروية» هي اللغـة الرسمية للبلاد الكبيرة. إذ لم تظهـر الكِتابات بكلتـا اللغتين المروية والعربية، قبـل منتصف القرن السادسـ عشر، وفقا لمدونات صانع الفخار- الحفيد.الذي أشار إلى كِتابات ترصـد التاريخ الإجتماعي والصوفي والطائفـي على عهد السلطنة الزرقاء، ككتـاب طبقات الخزين عتام، أو مخطوطة كاتب الطلبة، أو طبقات المرفعين راجـل الليل أب كراعا برّا، وغيرها من الكتب القيمة و الهامة، التي ترصد أوجه الحياة المختلفة.

خبـأ صانع الفخار أسرارا كثـيرة في منحوتاته العديدة، عبر كل سنوات عمـره التـي عاشها منذ الطفولـة. حتى مات مختبئا ومطـاردا ومحترقا في ساحـة الكنيسة الكبيرة؟! هـذه الأسرارستعبرعن نفسهـا عبر السنوات، التي تلت مقتله مصلوبا و محترقا!

كان صانـع الفخار يستقي بعض موضوعاته في النحت، بإلهام خفي من أنبيـاء غامضين! يـتراءون له في الحلم.. في الليالي التـي يغيب فيها القمر، وتصبـح أضواء النجـوم شحيحة؟!.. فكانت هـذه الأعمال بالذات تجيء مشفـرة برموز،هي مرجع مباشر لإماطة اللثام، عن ما يريد أن يقول بالضبط في كل أعماله.

ومن نبؤاته التـي راجت في العصر «المروي»، أن مملكة ستولد في سهول البطانـة، مرتحلـة من موقعهـا الأصلي. وبالفعـل بعد عشـرات السنوات،

وبسبب البحث المتواصل عن المزيد من الطين الخصب، نقلت «كرمة» عاصمتها من «نبتة» إلى «البجراوية» جوار «كبوشية»، بعد أن وضح أن منطقة «البركل» الصحراوية، لا تفي باحتياجات السكان والحيوان، زيادة على ضيق الشريط الزراعي على النيل.

فالبجراوية مطلة على سهل البطانة، وهو سهل واسع. وأرضه خصبة. وأمطاره نسبياً غزيرة. كما أن مكنونات طين البجراوية تحتوي على خام الحديد، خصوصا في الصخور. بالإضافة إلى وجود أشجار كثيرة، يمكن إستخدامها، في إيقاد «كماين» صهر الحديد وصناعة الفخار..

«ليس في الأمر عجب!»

هكذا كان جادين جانو- الحفيد، يهمس في سره. عندما تنتابه الدهشة، إثر فك شفرة أي رمز من الرموز، التي حفلت بها مشغولات صانع الفخار. لكونه كان كفؤاً في علم الحركة، الرياضيات، التشفير، علم الخرائط والرسم والجمال.

كان صانع الفخار ولدى تأمله للنيل، يفكر في حياة الناس ومعاشهم، في هذا الجزء من سهل البلاد الكبيرة. كيف بإمكانهم أن يحيوا دون النيل.. فهم ليسوا كأهل دار الريح، الذين تمتليء وديانهم بمياه الأمطار والسيول المنحدرة عبر الصحراء من أعالي تبستي.. فهذا الجزء من البلاد الكبيرة.. النيل بمثابة شريان حياته. ودونه لا حياة لهم! وهكذا أفضت به تأملاته لوضع خريطة متكاملة، لأماكن الإحتياطيات الجوفية. التي تذخر بها البلاد الكبيرة. كما خط مشاريع سدود على وديان دار الريح، لإحياء نهر

هــور القديم، الذي يربــط دار الريح بالبلدة القديمة، بمحــاذة درب الأربعين، ليتخطاها حتى يصل دار الريح بدنقلا العجوز أيضا!

«لا يبدو أن هناك حدوداً لعبقرية صانع الفخار!»

أول مــرة تعــرف فيهــا «جاديــن جانــو- الحفيــد علــى صانــع الفخار الجد»عندمــا حدثه معلمه - الخزين ود طبلة- الــذي عندما يتذكره الآن.. في قيــده بأغــلال العسس، يرى نفســه عابرا الفناء الكائــن في قلب البلدة القديمة، يمشي بخطى متئــدة في الزقاقاتالضيقة، بعد أن يعبر السوق «الورا» ومقابر «ود أمجبو».. كان وقتها كأي طفل صغير متسخ ومعفر بالتراب، يعبر بلــدة معزولة في الجغرافيا والتاريــخ..الله وحده يعرف كيف تكونت في هذه العزلة الغامضة!فالسياسيون ليس لديهم وقت لمعرفة ذلك! هو وحده -كما يعتقد في قرارة نفسه- يشارك الله هذا الإهتمام بالكيفية التي جاء بها هؤلاء ليصبحوا عشوائيين، لا مبالين!

عندما تفضي به أفنية البلدة الضيقة، إلى زواياها المفاجئة و»كوشها»يفارقه الإحساســ بالإتســاخ!كان يشعــر بنفســه نظيفا جدا مقارنة بمــا حوله من أوســاخ! وفي نهــارات الصيف قد يستظل في طريقه بظــل نيمة يتيمة. قبل أن يواصــل المضي قدما، إلى حيــث يسكن «الخزين ود طبلة»، الذي عندما يصله —غالبا- يجده يصارع إنهيار «الكرنك» الذي يعيش فيه.غير آبها لمواء القطــط المرتعبة والكلاب المزعورة حولــه.. والفئران التي لم تعد تبالي بأي إنهيارات حولها،بعد أنسارعت للإختباء عميقا في جحورها!

كان الخزين بوجهه المعروق والعرق المتقاطر على جبينه، كسيل تتخدده

سـدود التغضنات، ويحاول البحث عن ركـن لم تطاله ركامات الإنهيار أو الحريـق، ف»كرنكـه» دائما في حالـة إنهيار أو حريق.. ومـع ذلك دائما هو هادئا ووقورا كأن شيئا لم يكن!.. كل شيء فيه يتبدى نحيلا. حتى شفتيه المبتسمتين في لا مبالاة كعادتهما..

يتحـرك الحزيـن غـير متعجـلا.. إذ سرعـان مـا سيبني مـا تهدم من جديد!فقـد كان تجسيدا للحكمة الأزلية، التي وردت في نبؤة صانع الفخار الجد: «أنت من طين لتبني»!..

عندمـا يتجمع الناس في «النفير» لمساعدتـه في إعادة بناء «كرنكه» من جديد.. يسرد لهم، كيف تواجد في العالم الآخر.. فيروي لهم عن الأرضة والسوسـ، اللذان تخصصا في هدم «كرنكـه» كأنه يحكي عن أمر معتاد لا غرابة فيه!

كانـو يحبون طريقته في الحكي.. يأتونه من كل فج عميق.. من الدروب الوعـرة و الشـوارع الضيقة في البلـدة القديمة، ومن الأحيـاء وراء السوق «الورا» وتخـوم مقابر «ود أمجبو».بعضهم يجلب لـه طعاما وبعضهم يجلب ثيابا.. ويكتفي «الغتيتون كيتا فيه» بالسؤال:

«(لطالما حكيت لنا عن أن «السوس والأرضة» هما ما يتسببان في إنهيار «كرنكك».. فماذا عن حريق «كرنكك» هذه المرة؟)»

فيرد بهدؤ:

«أنه السوس أيضا»

كان الحزيـن عادة يجلسـ ليحكي للناس وهو عـاري الصدر، لكن مع ذلـك لم يكن ثمة مـن ينتبه لعريه أو كثافة شعر صـدره! وكان دائما أمامه صحـن لا يخلو من شرائـح «شرموط الضان أو الكجيـك الجاف»، الذي يقضمه بين آن وآخر في تلذذ وإستعذاب!

أحيانا يستلقي على جانبه في «البرش»، الذي يحرص أن يكون محاذيا ل»بنـبره» العتيق، الـذي لا يحركه من أمام مدخـل «الكرنك» تحت ضل «اللألوبة» المعمرة، التي بمثابة شاهدا على عصور متعاقبة للحياة والناس، في هذا الجزء من العالم المهموم والحزين!

أصدقاءه وجلساءه الدائمون غير الوجوه الأخرى المتغيرة، ثلاثة: أعمى يحرص على إرتـداء بدلة أعضاء الحزب الحاكم، رغم أنه لا ينتمي للحزب الحاكـم. ومقعـد أبكم يعطي جلسـاءه الإحساس المزمـن بالقرف، ومدى إكفهـرار هذه الحيـاة البائسة. وجادين جانـو الحفيد بعقله الوقـاد ونظراته الثاقبة. التي تشي بقدرتها على إختراق كل شيء تقع عليه!

يجلسـون بالقـرب منه مثل سلسلة. غير آبهـين بمضايقة السابلة لهم.. أولئـك العابرون من كل فجـاج الأرض، وأيضا إلى فجاج الأرض.. عندما يتوقفـون عـن المسير، لنيـل قسط من الراحـة وشرب شيء مـن «المريسة أوالعسلية أو الكانجي مورو!»..

كان جاديـن أحيانا، يدون بعض الحكايات أو الملاحظات كيفما إتفق.. في أي شـيء يجـده أمامه يصلح للكتابة عليه. لكن في الوقت نفسه كان لا ينشغل عن مراقبة كوة «القطية» المجاورة.. حيث تسكن منصورة.. الصبية

ذاتالقــوام الفــارع النحيف الأسمر، التي كانت ترمــي بأذنيها في مثل هذه اللحظات وتمددهما، لتحتويان كل حكايات الخزين ونبؤاته.

المــرة الأولى التي رأى فيهــا جادين جانو منصورة، تــكاد تكون مطابقة لأول مرة يرى فيها صانع الفخار الحفيد منصورة..إذ كانت الشمس في كبد السمــاء. والبلدة غارقة في قيلولة غائظة،لا حدود لها.سموم هجير الصيف، جعــل البلــدة ساعتها، كأنها قوز رملــي نائي وبعيد عــن كل شيء.. يغلي كأتون يحرق كل شيء، إلى درجة أن أحداً ليس بإمكانه أن يتوقع، أن يكون بوسع أي كائن حي، أن يغيّر مصيره في هذه اللحظة بالذات!

كانــت منصورة دائما ما ترتدي علــى كنفوسها ثيابا بسيطة. تبدو غريبة للوهلــة الأولى، إلى أن يعتاد عليها البصر!وكانت دائما ناعسة العينين كأنها لم تنــام لقــرون طويلة. وأكثر ما كان يميزها: إكليــل «الريحان» الذي تضعه على رأسها، لامة به شعرها الذي تتركه حرا على سجيته دون مشاط!

يستديــر جاديــن بوجهه الدائــري الصغير، وملامحه الدقيقــة، ولوهلة يحــاول طرد الأفكار، التي تتحدر مــن رأسه. فتثقل على بصره. يتراجع!.. فيمــا يهمس إليهــا صانع الفخار بكيانــه كله، دون أن تنبســ شفتيه ببنت شفة! فتهرع منصورة بكل تألقها..تقطع المسافة بين قطيتها ومجلس الخزين بسرعــة الجن، وتجلس في الوسط بــين جادين وصانع الفخار، الذي لا يشعر لحظتهــا بأي غرور ذكــوري! إذ يكون وقتها محتلا بالألــق وبالغبطة والرضا التامين!.

نساء القطاطي المجاورة..العابسات السمينات العانسات اللعينات،يغرن

مــن جمــال منصورة!واللائي كــن «كيتا»فيهــا، عندما يعاشــرن أزواجهن أو عشاقهــن، يتخيلــن أن مــن يعاشرهن في هذه اللحظة، هــو صانع الفخار بشحمه ولحمه!..كن يضمرن لمنصورة كرها عميقا، إذ كن يشعرن بإختلافها عنهــن. لكنهن لم يكــن بقادرات على تحديــد هذا الإختــلاف! وعندما يعييهــن التفكير، كن يتوهمن عشاقا على صهوات جياد بيض، يتراكضون لإنقاذهــن من أبراج خيالاتهن المرتفعــة! وكن يرين ظلالا لحدائق يتوهمن أنها جنات الخلد، ويرين أنفسهن حوريات، تجري في دوراتهن الشهرية رائحة المسك وليس الدم!

لــو لم تكن للخزين مثل تلك الحكايات العجيبة، التي غذى بها عقول الناســ، لما كانت لهن مثل هذه الخيــالات الخارقة! و لما عشقن الخوض في الحكايــات المزعومة عن منصورة وصانع الفخار، في الأماسي الطويلة للأيام، التــي تلي مؤتمرات الحاكم العام!.فماعدا حكايات الخزين، لم يكن لهؤلاء النسوة البائرات، أي متنفس لقسوة البلدة وقوانينها وتمييزها ضدهن!

ســكان البلدة القديمــة، كان موضوعهم الأساسي، الــذي يتداولونه في ملتقيــات أفراحهــم وأتراحهم، هــو علاقة صانــع الفخار بمنصــورة. وغالبا ماشرعــت بهذه الأحاديث، تلك المرأة التــي يتنادم زوجها الآن مع إحدى البايرات، في السوق الورا، أمام جزارة السمك..

وربمــا أن زوج أخرى في هذه اللحظة بالذات، بينما هو في كنتينه، خلف مقابــر ود أمجبو، يهجم عليه أحــد الزبائن،الذين يلفظــون في هذه اللحظة أنفاسهم الأخيرة، لأنه تحرش بزوجته. وفي الحقيقة الزوجة هي التي تحرشت

بــه! فأهالي البلدة من صيادي السمــك «المراكبية»، الذين بالكاد يكسبون قــوت يومهم.. والعمال المتعبون، والرعاة والمزارعون الحائرون. بعد أن قضى الحاكــم العام على أحلامهم في الحــرث والنسل.. لم يعــد أحدهم يقوى -كما في الأيام الخوالي- على العودة إلى عشه مع إحدى النسوة العابرات! فقــد كانت كل الأجهزة في أجسامهم قد تعطلت، ولم تعد أعصابهم تعمل كمــا ينبغي، إلا عند إرتيــاد الإندايات.خصوصا بعد أن قتل الحاكم العام، معظــم رجال البلاد الكبــيرة في الحروبات المفتعلة. وشــرد البعض الآخر. بينمــا أختار العدد الأكبر من تعداد السكان المتبقين،مغادرة البلاد الكبيرة واللجؤ. ولسان حالهم يقول:

«أرض الله واسعة!»

هذا غير المساجين والمعتقلين دون ذنب جنوه!..

وهكــذا أصبحت البلاد الكبيرة، بحاجة لمعجزة كي لا يكون فيها نساء بايــرات! ولهذا السبب بالذات، نسوة البلدة القديمة كن يغرن من منصورة وحكايتها مع صانع الفخار!

كانــت منصورة عندما تختلي بصانع الفخار و تستلقى في حضنه. تيمم وجههــا شطر السماء، وتغط في نوم عميق.فلا يعود يشغلها وقتئذ شيء عن مراقبة سحــب خيالها، وهي تشهق في السمــاوات البعيدة، تشارك الخالق مرئياتــه السرية!لا يوقظها سوى تنحنح صانــع الفخار، الذي يطفق يحدثها بما تكره: أحلامه وأفكاره عــن اللامبالاة والتبلد! فقد كان عندئذ تفكيرها ينصرف إلى خشيتها فقده. لكــن يوما بعد يوم، كانت حدة كراهيتها لهذه

الهموم العامة، تتضائل شيئا فشيئا. إلى أن تلاشت وأختفت تماما، فأصبحت تشاركه هذه الأحلام، التي أصبحت بمرور الوقت ليست أحلاما! بل صوتا واحدا متوحدا عاليا ومرتفعا.. يقض مضجع كل سكان البلاد الكبيرة!

كان صانع الفخار كمعلمه الخزين يحب «شرائح الشرموط المجفف» في نهارات صيف البلاد الكبيرة الغائظ..يأكله بتمهل، كأنه يستعذب السباحة في أنهار الخمر، التي حكى له عنها الخزين!.. كان يستعذب طعمها، بعد أن يشمها على مهل.كأنه يشم «شربوتا معتقا» ليتأكد من مدى جودته!

إذن بعد عشرات السنوات، كان الخزين ود طبلة، لا يحكي عن صانع الفخار أو ينقل خبراته، للأجيال الملتفة والمتحلقة حوله عبر تاريخ البلاد الكبيرة، إلا بعد تناول شرموطه الجاف ومريسته المفضلة:

«أقول لكم.. والحق ما أقول..أن عالم الحياة الأخرى عالم فاتن وبديع، فكل ما هناك يختلف عن ما لدينا في هذه البلدة القاحلة..أول مرة سافرت إلى هناك،تملكني الرعب!فبكيت مثل طفل صغير وجسمي كله ينتفض. كنت مرتبكا. لا أدري ماذا أفعل..فطفقت أمشي على غير هدى، إلى أن مررت بحفرة عميقة مشتعلة بنيران عظيمة. كانت صرخات وبكاء أصوات معذبة، تأتي من أعماقها السحيقة، فسألتهم:

«من أنتم؟»

فردوا جميعا بصوت واحد:

«نحن حكام البلاد الكبيرة».

وعند هـذه اللحظة مـن الحكاية..نسوة البلدة البائـرات، اللائي تحيط قطاطيهنبمجلس الخزين، يتأوهن ويندبن وهن يرددن:

«سجمي يا يمه!!»

فينتعش الخزين ويعمق من صوته، ونكاية فيهن يقول:

«إذا وقـع أحد بحب إمرأة فهو هالك لا محالة، فهناك حفرةأخرى لهذا الغرض»

وبغتة تغمر عيون منصـورة كآبة وحشية،فتطفق تقضم بشراهة»شرموط الكجيك» الذي علمها صانع الفخار أن تحبه.

وينظر إلى أحد الذين يرتدون بدلة حزب الحاكم العام:

«وهناك حفر خاصة بالعسس والبصاصين والجند والمليشيات الجهادية»

«ماذا عن أهالينا؟»

«لقد بحثت عن أمي وعن أبي وجدي»

«وهل وجدتهم؟»

«كنـت قد عدت من رحلتي قبـل أن أجدهم، لكنني في طريق عودتي إلتقيـت صانع الفخـار الأكبر، مستلقيـا تحت شجرة سـدر. متوسدا ثعبانا ضخما.. كان مبتسما في دعة وحبور»..

«صانع الفخار؟!»

«لا. الثعبـان.. حكـى لي أنه لقـي حتفه قبل ثمانيـةآلاف سنة.. على

أيدي جند السلطان»

«الثعبان؟!»

«لا. صانع الفخار الأكبر»

عند هـذه الجملة يغـرق الصمت المباغـت مجلس الخزيـن. ولا يعود الأهـالي إلى طبيعتهم، إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير. حين يتعالى صراخ عجوزا، لم يسبق لهـا أن عاشرت رجلا حتى طعنت في السن، صبيا وقحا لأنه ناداها بجدتي. الأمر الذي هدد ذكريات أحلامها في الزمان البعيد.

كان الخزيـن عـادة يختتم في نهايـة المطاف حكاياتـه (أدركت شهرزاد الصبـاح فسكتت عن الكلام المباح) وكان في ذلك إشارة إلى الحاكم العام لا بإعتباره عاقرا فحسب، بل بإعتباره مخنثا كما تقول الشائعات!

وبعد كل حكاية، كان الدمع ينهمر مدرارا من عينى منصورة الناعستين. بعد أن تغرورقا بالكحل، فتنداح من عرقها رائحة الريحان والسعدة البرية!. وفي نشيجهـا تعدل منصورة من الإكليـل على رأساها،وتترك يدها طيعة في حضن كف صانع الفخار.

كان الخزيـن هو الرجـل الوحيد من الأهالي، الـذي إستطاع إختراق قصـر الحاكم العام. ومنحته إحدى زوجاتهالعديدات نفسهافي كرم و رضا. وهيتندب حظها على هذه اللقاءات السرية المختلسة! كانت في لحظة الوداع الوشيك، إثر كل لقاءتفيض الدموع من عيونها مدرارة.

وكان هـو عندمـا يتسلل من قصـر الحاكم العام، لا يقصـد كرنكه بل

يمضـــي لينام في إنداية الســـرة كحل الليل، حيث –وكمـــا يتوقع تماما– في طريقــه إلى الإنداية.. وعندما يمـر ببيت حمد الأعرج في ذات التوقيت، من كل مرة. يجده عند مدخل زريبته، التي أمام بيته وهو يهتف بحماره وولده، ليدور الحوار ذاته الذي يسمعه كل مرة:

«حـــاو حاو.. يا ولد أمسك الحمار.. كتف داك أمسك داك.. أربط التور غادي لا ينطح رفيقو»

فيسأله إبنه:

«يابـــا هنـــاك في شنو؟ الخدم الكتـــار ديلك، متلمات هنـــاك في شنو؟ يا شناتن؟»

«يا ولد البّو. خلي الفصاحة واحبس البهايم وإنت ساكت»

ويترك أمر البهايم لإبنه ويمضي في أثر الخزين.

«هوي يا خدم سلام عليكن»

«حباب حمد الأعرج.. كيفك يا أبو محمد»

«القرعة أسرعي يا بت»

فتناولـــه عشمانـــة الساقية قرعة المريســـة، التي يأخذها بلهفـــة ويبدأ في الشرب، وهو يقول متلمظا شفاهه الرقيقة، الناحلة واليابسة:

«يا زولة دي مريسة علي الطلاق تكتف عديل كده»

فترد عليه السرّة كحل الليل:

«هنيالك. يا بت أطبقي لخالك»

«لا لا حرّم. طلاق تلاتة. فكيت الرِّيق خلاص»

يتجشأ وهو يلتفت لعشمانة:

«يا بت أمرقي أربعة جرار غادي.. الليلة براي ما معاي زول»

فتسأله:

«الكلام السمعتو ده صحي؟»

«سمعتي شنو؟»

«البارح بعد إنت مشيت عبد الله أب فاطر حكالنا حكاية عجيبة»

«الممسوخ قال شنو؟»

«قال سوق ود أمجبو ما فيهو سيرة غير سيرة مرة الحاكم العام الصغيرة. الناس شافوها في الشاطيء جهة المقرن تمشي وتجي ليها مدة»

«وعرفوها كيف؟»

«عرفوها بعد ما إتشاكلت مع حارسها، فقامت القيامة وحضروا مسئولين أمنيين كبار في المنطقة»

وفي الحقيقة كان حمد الأعرج يعلم أن زوجة الحاكم العام تمضي إلى شاطيء النهر لتروح عن نفسها في الأمسيات الرائقة، وكثيرا ما رآها جادين جانو نروح وتجيء وحيدة، وهي تخط بقدميها على الرمل أشكالا غامضة! وحارسها يقف على مبعدة منها. وفي الأوقات النادرة التي كان يغيب فيها،

كانــت ترافق شابا مراهقــا ثارت كثير من الأقاويل حــول علاقتها به.وكان الأهــالي المتبطلــين الذين ليس لديهم شغلة أو مشغلــة كثيرا ما يمضون إى الشاطيء في الأمسيات يترقبونها من خلف دغل الهشاب الذي على ضفة المقرن، وهم يمنون أنفسهم بالقرب منها، يتآكلهم الحرمان!

IV

الآن، وروحــه تغادر جسده المصلوب المحترق في فناء الكنيسة،تطوف في أرجــاء البلدة القديمة. وتستعيد ذكريــات حياته فيها. يرى نفسه: يدور حول السوق الصغير ومقابر ودمجبو، عابرا إلى السوق الورا. فتعود به الذكريات إلى الخلف،حيث يقف وود الخزين أحيانا ليعابثان التوم ود أب قرن الإسكافي. أو يجلســان عند قهوة ود أبدوم، يتــداولان مع روادها الأحاديث التي لا تثمر.. يبحــث عن الأب جميل،ويشاهــد عناق الكنيسة و الجامــع القريب، الذي إحتل جزء كبيرا من أرض ود أمجبو.. شاهد ذكريات.. لكنه لم يشاهد أحدا يمــر في منتصف السوق القديم. ربما لأن الأهالي جميعا لحظتها متحلقين حول جسده المصلوب المحترق، هناك.. في فناء الكنيسة العتيقة.

حــاول فتح أبواب الحوانيت القديمة، لربما هنــاك روح سكير قديم كحمد الأعرج في انتظار أصدقاءه. أو أحد السابلة المتعبين، لطول ما قطعوا من فيافي وغفار. غلبه النوم على قارعة الطريق في هذا السوق.. فنام متكئا على جدار الحانــوت. سوق قــديم ورجل قديم.. وحكايــا الخزين الضاربــة بجذورها، في ذاكرة المكان الذي هدته السنين!

كان الســوق إذنخــاو لا من الناس فحسب، بل حتــى من الحياة نفسها. فحتــى القطط تهرب مــن وجهه.. قطة سوداء تقفز نحــو الحائط القريب.كان

يشعر بالحسرة والشوق لتلك الأيام. عندما كانت فوانيس الجاز تضيء السوق القــديم،إلى أن يعلن صياح الديكة ميلادصباح جديد دون أن تنطفيء!وقتها كان يصحو باكرا.. قبل شروق الشمس، ككل أهالي البلدة القديمة، الذين لا يوجد بينهم عاطلا أو متعطلا.

تسألت روحه:

«ماذا جرى لأهل هذه البلدة؟»

في هذه الحوانيت والزوايا و النحوت، التي تزينالأسوار العالية والجدر، التي نمــت عليها الطحالب الخضــراء والفطريات.كأنها تؤرخ لماضي البلدة القديمة، بسوقهــا الذي هوعصب حياتهــا وأنشطتها الدؤوبة، التــي لا تهدأ في حركة العمــال والصُّناعكالحائكــين والإسكافيينوالدباغين والدهّانــين والخشابين والحداديــن.. في هذه الحوانيت كان الناس، يجدون كل إحتياجاتهم بأبخس الأثمان. فما الذي جرى؟

كانســوق البلدة القديمــة يجتذب السيــاح الوافدين، والــزوار القادمين مــن القرى القريبة المجاورة، التي كانت تفتقد لمثــل هذه الأسواق، لتتسوق وتقضــي حاجاتها منه.. وقــد كان السوق عند أهالي البلــدة القديمة يسمى «البنــدر» لكن أهــالي البلدة القديمة، كانوا يفضلون إطــلاق إسم «ود أمجبو» على سوقهم، دونا عن كل الأسماء!

يتأمل جادين جانو إحــدى الهوامش، التي خطها الحزين بقلمه البوص، على إحــدى تدوينات صانع الفخــار، وهو يقول في نفســه: «ولعل سوق ود أمجبــو في البلــدة القديمة، كان مثــالا حيا لما يفضلون من خيــارات حياتهم.

والــذي كان إلى ما قبــل سنوات قليلة، قبيل مقتل صانــع الفخار، سوقا يعج بالحيوية والحياة. أما اليوم»..

وروحــه تحلق في فضــاءات البلدةالقديمة،كان السوق قــد أقفر من تجاره وعمالــه وباعته وصناعييه وعشابيه، الذين يــداوون الأهالي بالأعشاب. كما خلى مــن تجارته الرائجة في تلك الأيام البعيــدة، إذ لم يعد هناكمشترون أو باعة،فأضحى بلقعا يبابا.. يلفظ أنفاسه الأخيرة ببطء!

إن الــذي عاشــ تلك الفــترة الذهبية، يــوم كان هذا الســوق «في عزّه» لا يسعــه إلا أن يتحســر على تلك الأيــام الخوالي، وعلى ما آلــت إليه هذه الحوانيت «المغلقة» الواقعة على جانبيه، وقد بدت حزينة كئيبة.. بعد أن كانت في يــوم من الأيام عامرة..لا يسعه إلا أن يتحســر على ما أصابها من خراب وهجران، بعد أن هجرها الأهالي!!

وإن الذي تسوقه قدماه اليوم ليمر في وسطه، لا يسعه إلا أن يحزن ويتألم على هذا الوضع المزري، وهذا الإهمال الفاضح لكل أجزاءه..

وعلــى بعد مسافة قصيرة من هذا المقهى، الــذي يعج مدخله بالدلالين، الذين يبيعون ويشــترون ويقايضون كل شيء وأي شيء. كان سوق الخضار بمثابة خط فاصل بين السوق الصغير والسوق الورا أو سوق ود أمجبو، الذي يشمــل سوق العناقريــب، الذي أكثر ما تميــز به صناعة البروشــ، والنطوع والسحــارات التي تحتاجها النســاء لحفظ أغراضهن. فســوق العناقريب ربما لهــذا السبب بالذات، كان لا يفرغ مــن زبائنه.. كخلية النحل. وكان يطيب للشيــوخ وكبار الســن والسكارى المتقاعدين، الذيــن كانت لهم في شبابهم

صولات وجولات والنساء بالذات، الجلوس في هذا الجزء من سوق ودأمجبو. لأسباب خفية غامضة، لا يدرون حتى هم أنفسهم كنهها!وأكثر ما يميز سوق ود أمجبو، أنــه ملتصق بالكنيسة العتيقة، الملتصقــة بالجامع الكبير.الذي لا يبعد كثيرا عن مقر الحاكم العام.

ستمــر عشرات بل مئات السنوات، لكن سيظل سوق ود أمجبو يحمل آثــار عزّه القديمومجده البائد، الذي تكشف أحفورات صانع الفخارعن معالمه المقفرة، في ذلك العصر الكارثي.

وفقــا لمخطوطات صانع الفخار، أن من قام بتشييد هذا السوق هو الخزين الأكــبر. أثناء حكم نيرون لرومــا في القرن الأول الميلادي. وقد كان في البدء مفتوحا..والأضــلاع التي تشكله الآن مستحدثة. فأحــد أضلاعه تم إنشاءه فيأواخر العهود النوبية، قبيل سيطرة العرب بقليل. أما الضلع الآخر فقد شيد علــى عهد حكام الفونج، وسلاطين دار الريــح الأقوياء. وبهذا المدخل توجد عــدة مداخل: مدخل للســوق الصغير.. ومدخل لســوق مقابر ود أمجبو.. ومدخــل لسوق السمك وجزارات الكمونيــة والدواجن. ومدخل للكنيسة القديمة والجامع الملاصق لها.

كان ســوق ود أمجبوإذن يبدأ طريقه من حيث الجامع والكنيسة، وجزارة السمــك والكمونية. ثم يتجه شرقا حيث ينهضــ في بداية صفوف دكاكينه دكانالخردوات، الذي يطيب لدراويش البلدة القديمة، الجلوس تحت كشاشته.

كانوا بثيابهم الملونة يجلسون في هدوء وهم يتبادلون أسرارهم!

وبدء من الصف الذي يلي دكان الخردوات، يمكن للمار أن يمر بشخصيات

هــذه السوق الثابتةوالمميزة واحدا واحدا كلما أوغلفي المسير. فالمرحوم رزق كان يحــترف من المهــن والحرف كل شيء، بدء بصناعــة الطواقي والمناديل والقفاف، مرورا بقلــع الأسنان المسوسة ووضع حدوات الجياد وقص أظلاف المواشــي، بالإضافــة إلى كونه حلاقا وطبيبا وحجاما. والذي كان يسبغ على السوق جوا من المرح والســرور بنكاته و«مقالبه» البريئة، التي لا ينافسه فيها سوى حمد الأعرج، والتي لم يكن ينجو منها أحد!!..

وطمبل صاحب الشخصية القوية، الذي قلما كنت تراه مبتسما.. والذي كانــت مطرقته تترك وقعا داويا يرن في أرجاء الســوق كله.. وجبارة الهنباتي وسابل الستر و..وغيرهم كثيرون.. خطروا على روح جادين فردا فردا في هذه اللحظة الفاصلة التي تفارق فيها روحه جسده المحترق.

تخيلهم وهم يخرجون متعثرين الخطــى تجاه بيوتهم، بعد أن أفسد عليهم فتــوات البلدة القديمــة جلستهــم في الإندايــة، يتوهمون أشيــاء لم تحدث، ويضيــف خيالهــم لأشياء حدثــت تفاصيل جديدة، ويحذف عــن وقائع ما حدث تفاصيل أخرى إذ يقول أحدهم:

«والله يــا جماعة أنا من الصباح عيني ترِّف ويــدي ترجف. عارف الليلة اليوم ده ما بيعدي على خير»

«يــا زول علي الطلاق أنا خلاص نفسي مرقت من إنداية السرّة وتاني ما حأشرب عندها»

«علي الطلاق.. علي الطلاق..»

وينسى ما يود أن يقول.. فيشد آخر مقود حماره وهو يقول:

«هع هع أقيف. يعني هسه الأولاد الخربو لينا قعدتنا ديل هم أرجل مننا.. علـي الطلاق مافيهـم راجل واحد.. عـر عر شوف الحمـار ده عليك النبي التقول سكران»

«إنت يـازول. سوق الحمير علي الطلاق أصبـح زي النار، الحمار الكان بخمسين جنيه هسه بقى بمية»

«نار وين.. علي الطلاق إنتو سكرانين هسه هنا في نار؟»

«يـازول علي الطلاق سكران إنت براك. أقـول ليك الحمير شافن النار، تقـول لي عكازي وقع. يعني ما يقع.. أصلو عكاز همباتي. عليك النبي عصا ملسا ويقول عليها عكاز.. ده كلام ده»

فيقاطعهم أحدهم متوهما إيقاع دلوكة ونخلات:

«هـي هي كدي أسكتو سامعين؟.. صوت دلوكة جاي من ورا النخلات ديك.. عرعر عليك الله شوف الحمار ده عاقد قفاه كيفن تقول خايف»

«أبـوك يا فاطمة أنـا خايف؟ يعنـي عاقد قفاي خوف؟ علـي الطلاق.. يعني.. هنا.. هنا الكلام»

ويسقط من على ظهر حماره، بينما يهرب الحمار راكضا، تجاه قلب البلدة القديمة:

«حاو. حاو. هش .. يا سيدي الحسن»

«حسن منو؟ يا زول القايم في الطريق ده عشر مافي عثمان هنا»

«يـا أخوانـا نحن رحنا.. الحمـير دي شكلها كده رجعتنـا لإنداية السرّة تاني، وهربت لغادي.. الحمير دي الظاهر سكرت»

«لا لا شوف ديك ما ياها ميضنة كنيسة ود أم جبو؟»

«وينو؟ما شايف جامع الكنيسة هنا!»

«علـي الطلاق نسكر من زمن حفـروا البحر. جنس ده ما حصل علينا.. الملعونة الظاهر أدتنا من مريسة كبس التور»

«يـا جماعة إنتو ناس واعيين، عيب تقولو ضهبنا.. لازم تجهزوا ليكم عذر من هسه»

«أنحنـا كلامنا هين. قاعديـن نكوس الليل كلو للحمـير الضايعة. لكن الحمير ذاتا عذرها شنو؟»

وبوصولهم إلى بيوتهم.. يهتف إبن أحدهم:

«أبوي إنت سكران»

«يا ولد كفى – كفنك برش- دحين دي دقن مريسة؟!»

وعندما يسمع الجيران بوصولهم تتهامس النسوة:

«كافي البلا وحايد المحن من الشياب العياب. السكر وقلة الفكر»

كانت روحه تطوف بهـم فردا فردا، وتستمع إلى ما يقول كل واحد منهم لرفاقـه، فيبتسم. وهو يرى فيما يرى الناسـ، يلتفون حول أصحاب حوانيت

ســوق ود أمجبو. الذين كانوا في معظمهم متحدثين بارعين، يستأنس الأهالي بقصصهم الممتعة، وأحاديثهم السلسة ونكاتهم المرحة. التي تغذيها حكايات الخزين. التي تفيض بالحكمة والطرافة.

كل حـركات المقاومة والمعارضة والهبـات الثورية، كانت تخرج من قلب هـذا السوق. ولهذا السبب بالذات أصبح الحكام المتعاقبون يستهدفونه. إلى أن وصلوا به إلى هذا الحال البئيس!

كان شاغلـي السوق كرواد الإندايات، دائمـا ينقسمون إلى معسكرين: قسـم مع الحاكم العام وآخر ضده.وكثـيرا ما كانت تدور بينهم معارك حامية الوطيس، قد يحتدم فيها النقاشـ، لدرجة الشتائم والسباب البذيء المقذع والعـراك بالأيـدي. لفرضـ آرائهـم. إلى أن يتمكن العقلاء مـن فض هذه الإشتباكات..ليعودوا في اليوم التالي، وكأن شيئا لم يحدث البارحة!!

هكذا كان أهالي البلدة القديمـة،في تلك الأيام الخوالي!..وهكذا ودعت روح صانع الفخار سوق ود أمجبو وهي تتحسر على أمجاده الغابرة!

وروح صانـع الفخـار، تحلـق في فضاء سـوق ود أمجبو والبلـدة القديمة، وجسده يحترق هناك في فناء تلك الكنيسة العتيقة، كانت كل أسرار الخزين تنفتـح كالإلهام على فضاء ذاكرته.. فمن الأسرار الخفية للخزين، والتي أبدا لم يطلع عليها أحد سواه حتى الأطراف المباشرين لهذه الأسرار، أنه في لحظة ما بعيدة توسطت سنوات غابرة في إنصرام الزمان. وبينما كان الخزين يسكن وحده في هذه البلدة، التي لم تكن وقتها مأهولة، بسبب ما حل بها وبسكانها القدماء من أسلافه من دمار على مر العصور. فقد بد السكان يتوافدون إليها،

يحيــون ذكرى أسلافهم الغابرين! بعد أن شيد فيها الخزين أول كرنك عرفته في تاريخها القريب.بعدها غادر البلدة إلى دار الريح لحين من الوقت. وعندما عــاد كانت برفقته إمرأة فارعة،أنجب منها جدة منصورة. ماتت تلك المرأة بعد فترة قصيرة، بعد أن أنجبت له فتاة جميلة، ستكون في مقبل الأيام هي الجدة المباشرة لمنصورة. ورثت منصورة لون جدتها وقوامها الجميل،وشعرها الأسود الطويل . فضلاً عن عينيّ الخزين اللتين كعيني صقر عجوز.

لم يطلــع أحد أبــدا على هذا السر. بــل حتى أن منصــورة ووالدتها لم تكونــا تعرفان، أن الخزين في الحقيقة هو جدهمــا! لذلك كان الخزين سعيدا جدا، وهو يراقب تلك المشاعر البطيئة المتنامية، التي تدنو حثيثا. لتصل قلب منصورة بجادين!

كان جاديــن يرى روحه تخرج من أعماقه.. تحلق فــوق رؤوس العسس، وجمــوع الأهــالي المتحلقين يشهــدون لحظــة إعدامه.. ثمــة تصفيق متقطع وزغاريــد شاحبــة، تمتزج في لهــب النــيران المشتعلة حوله..ثمــة رصاصات تتلاشــى في الألسنة المتطايرة.ومن بين مشاهــد كل هذه المهزلة، رأى طيف الخزين يبصق في جموع الناس بإزدراء ومقت شديدين!

في اللحظــة نفسها كان الحاكم العــام يلقي على الناس بيانه، حول الخونة والخــوارج العملاء والمرتزقة شــذاذ الأفاق.. المخربين الذيــن سيجعل منهم أمثولــة لآخر الزمان!..كان الحاكم العام يلقي بخطابه في هستيريا وهو يجوب شوارع البلدة ودروبها. وسط الهتافات العالية لحزبه.. في هذه اللحظة ذاتها.. الفارقــة بين عالمين يعلنان إنتقال روح صانع الفخار إلى مثواها المؤقت، وميلاد

روحه مرة أخرى في صانع فخار جديد..

في هـذه اللحظة المحاصـرة برائحة القلق والحرائق والرمـاد، رأى الحاكم العـام منصورة بين جموع الأهالي: عينـان لامعتان، شفاه رقيقة، أنف دقيق، وشعر ممشط في جدائل كبيرة يتخللها الودع الملون!

بدت له منصورة في فستانها البسيط،ووجهها الذي لوحته شمس البلاد الكبـيرة، أجمـل أنثى في الكون تقع عليها عينـاه!. فتوقف عن إلقاء خطبته لاهث الأنفاس، وأشار إلى حرسه الخاص تجاهها.

في تلـك الظهيرة، كانـت منصورة التي تستعد للإقـتران بصانع الفخار، قدإرتـدت أجمل ثيابهـا، بعد أن مشطت لها أمهـا شعرها، على ذلك النحو الذي يقلق ذكورة الرجال ويقض مضاجعهم.

ثم جلست على بنبرهاالحميم لتستمع لنبؤات أمها، التي تفرغت لحظتها لتخط الودع وتقرأ مستقبل إبنتها الوحيدة.. كانت ترى في الودع فراشة تطير في هجـير الظهيرة، وتسقط محترقة.. ثم تنبعث من جديد وتحلق بعيدا بعيدا في الهواء!.

فيما عدا الخزين ومنصورة،لم يكن أحد يعرف أن أمام صانع الفخار أياما معدودات، ليفارق بعدها هذا العالم الكارثي الشائه!

في اللحظة نفسها، بينما كانت روح صانع الفخار تحلق عاليا إلى طمأنينتها، كانـت تلك الفراشة تلحـق بها. فترتعشـ روحه دون وجل وتهـدأ.. تعانق الفراشة.. تتوحد معها، يستحيلان معا إلى بريق في اللانهاية.

٧

في الصبيحــة التي سلقت مقتل صانع الفخــار بثلاثة صبيحات، قالت السرّة كحل الليل لمستورة رمش العين:

«قصة غريبة لا يصدقها عقل!»

«قصة شنو؟»

«عشمانة قالت كانت شغالة حدامة في بيت الوزير الفلاني»

«والزمن ده كلو ساكتة ما قالت بغم»

يبــدو أن عشمانة التي كانت تسمــع فضايح قصر الحاكم العام ورجاله، التي يتبادلها رواد الإندايــة كل يوم، قد شعرت بنوع من الإستفزاز حفزها لــلإدلاء بدلوها، فحســب حكايتها، أن زوجــة ذلك الوزيــر تربطها علاقة مشبوهــة بأحد الشبان المعارضين المثقفــين العاطلين، والذي كان في الواقع حبيبهــا هي عشمانــة نفسها، قبل أن تتعــرف عليه زوجة الوزيــر تدريجيا، خلال زياراتها لبعض أقاربهافي البلدة القديمة.

وتضيف عشمانــة أنه عندما توطدت العلاقة بين الشاب وزوجة الوزير، بــدأت هــذه الأخيرة، من حــين لآخر، ترسلهــا لإحضــار دواء خاص من الصيدليــة، ودفعها حب استطلاع للسؤال عن فائدة ذلك الدواء الذي بدا لها أن ثمنه غاليا، إذ كانت ثمن الحبة الواحدة يفوق المائة جنيه، وبعد البحث

والســؤال علمت بفوائده وبالأغراضــ المخصصة له وأن اسمه «الفياغرا» أو الحبــة الزرقاء، كما لاحظت عشمانة أنه كلمــا طالبتها زوجة الوزير بإحضار الحبــة الزرقاء، كانت تعلــم أنها تكلم حبيبها في الهاتــف، وبعد ذلك تغادر البيــت وتقضي الليلة خارجــه، وهكذا علمت عشمانة بــأن مشغلتها على علاقــة مع حبيبهــا، وأضحت تعرف بأن اقتناء الحبــة الزرقاء من الصيدلية يعنــي غياب سيدة البيت وأنها ستنعم بالراحــة وتتخلص من طلباتها التي لا تنتهي وبذلك تنعــم المرأتين معا بليلتيهما، إلى أن إكتشفت زوجة الوزير علاقة عشمانة بذلك الشاب، فحز في نفسها، فطردتها من خدمتها وقطعت علاقتها بالشاب!

«عليك الله ده كلام بيدخل العقل»

«مالو ما بيدخل العقل، ياما تحت السواهي دواهي يا يمه»

جاء صوت أحد الفتوات قاطعا ليهما مسامرتيهما:

«الليلة مافي مريسة ولا شو»

«إتفضل أدخل لجوه»

الفتــوات الذين كانوا يفسدون على ســكارى البلدة القديمة جلساتهم، كانــوا بمثابة الوقايــة والدرع الذي تتحطم عليه إستفــزازات السكارى التي يطلقونها بسبــب وبدون سبب. حينما يقدمون علــى الإندايات، يدخلونها واحــدة تلو الأخرى. يسخرون من هــذا ويتحدثون لذاك. يذرعون الإنداية جيئــة وذهابــا، علهم يجــدون سببا للشجــار. وعندما يعييهــم البحث عن

سبب،يهتف أحدهم وهو ينظر بعين واحدة، بعد أن يكفى طاقيته على عينه الأخرى:

«أي واحد يفتح خشموا نحن هنا.. جاي يا بت.. عندكن شنو الليلة»

«كلو في.. مريسة.. عرقي.. بقنية..عسلية.. طلباتكم»

«خمسة قزايز عرقي وخمسة برمة مريسة وعشرة عبار كانجي مورو»

فيهتف أحدهم دهشا:

«أبو الزفت.. أهو الطلب كدي ولا بلاش»

فيتسأل آخر:

«ياخي ديل بيجيبو القروش دي من وين؟»

«ياخي إتكلم براحة..الناس ديل صعبين خالص لو سمعوك»

«صعبين على مين؟ أنا على الطلاق جدي الملك بارم ديلو.. وما سائل في أي واحد هنا.. عارف ولا ماك عارف.. أما مسخرة وقلة أدب.. قال صعبين.. صعبين على منو.. صحي الما بيعرفك بيجهلك، والما من بلدك ما بيعرف رطانتك»

«ياخي بالله أسكت خلينا نتكيف.. ياخي مالك ومال المصايب»

«مصايب بتاعة مين، أقوم أنيك ليك أبو حلتهم ذاتو هسه دي.. هع هع أنا الصعب المتكل بالشعب»

فينهض أحد الفتوة غاضبا:

«يلا.. كلو برا.. ما عايز ولا زول هنا»

فتركض نحوه عشمانة:

«العكر عليك مزاجك منو.. سجم خشم أمو يا يابا»

«الزول الوهم داك»

فتقبل عليه عشمانة:

«مالك عايز تخرب علينا.. قوم يا زول أمرق برا»

«أمرق أنا يا بنت الكلب والله كان جا الحاكم العام ذاتو ما يمرقني»

ويحرك عصاه ويتحسس سكينه:

«أما عجايب شوف بالله ديل.. خسرانين دم قلبنا.. برمتين مريسة وقزازة عرقي.. الراجل البيطلعني لسه أمو ما ولدتو»

«يا زول أخير ليك قوم أمرق بالحسنى»

فيمد يده ليضرب عشمانة التي تصيح:

«ووب علـي أنا.. تضربني أنا يا المايل المتهايل.. يا يابا يضربك الضريب شقاق العناقريب»

وهنا يقترب الفتوة:

«يا خادم أبعدي غادي خليني النجيهو ليك»

«يعني عاجباك نفسك وقايل بتطلعني من هنا يا ود الغلفاء»

ولا يتركه الفتوة يكمل كلامه، إذ ينهال عليه ضرباويحمله بين زراعيه ويقذف به خارج سور الإنداية.. وقتها يتضاير الجميع، ويبدأ البعض من السكارى المخضرمين في التسلل خارج الإنداية، بينما يبقى المستجدين مكانهم.. بينما يعلو الصخب:

«كتلو.. جدعو.. ووب علي.. سجمي.. سجم خشم أمو..»

وهنا تتدخل السرة رمش العين:

«أما خمج..الدوشة ليكم شنو.. كلو زول في محلو..»

فيقاطعها الفتوة:

«خلاص يا حاجة السرّة نزلي البيرق وفضي لينا الإنداية من الناس الوهم ديل.. أنحنا إشترينا الشراب كلو»

فتزغرد عشمانة وهي تقول:

«أها سامعين حديث الجنيات الفناجر..كل زول يشرب كاسو ويبقى مارق»

وهنا يتحدث كبير الفتوات:

«كمان علي الطلاق ما تاخدي ولا مليم من أي زول.. حتى العيفة الجدعناه بره ده حسابو علينا»

فيطنطن البعض:

«إنعل أبو اليجي الإنداية دي تاني»

المرة الأولى التي إلتقى فيها الخزيـن بتلك المرأة البدوية،الجدة الكبرى لمنصـورة، أدرك أن القدر سطر لـه مصيرا غامضا لا مفر منه!.. أخذ يحكي لها عن البلدة التي يحلم بتشييدها بين مقرن النيلين، على أنقاض البلدات التـي طالها الخـراب والدمار عبر العصور السحيقـة لتاريخ البلاد الكبيرة، فأومـأت برأسها موافقة، فأبتسم وهو ينتحـي بها في جوف دغل من أشجار النّال.. إستسلما لرعبهما الذي يحفزعريه ملمس النال و رائحة قوية قوامها العـرق الزنخ تقتحم رائحـة النّال فتمتزج بها! وتجعـل لخياشيمهما ملمس أعصابهمـا المتحفـزة. عندما أفاقا من غيبوبتهمـا لم يكونان يعلمان كم من الوقت قد مضى عليهما. في تلك اللحظة بالذات، كانت جدة منصورة تنمو في أعمـاق تلك المرأة البدوية. تذكر الخزين ود طبلة كل ذلك عندما تناهى إلى مسامعه، خبر مقتل صانع الفخار محترقا، في فناء الكنيسة العتيقة! و..

وبعـد أن تهـدأ المواجـد والتوجـدات والمحـن والإحـن والعـداوات والغبائن.. بعد عشرات السنـوات ستغني الحكاماتبوحي منصورة أخرى، أغاني مشحونة بكل بذاءات العالم، ضدالحاكم العام وحزبه..أغنية واحدة ضد الثلاثة الكبار، وأحزاب البلاد الكبيرة المخنثة!

وبالتـالي يسدل الظـلام استاره، وأول من ينسحـب سيكون هو صانع الفخـار الحفيد ومنصورة الحفيدة ذات نفسيهما!سيسيران متعانقين: صانع الفخـار طاعن في السن، يتهادى نحيـلا متعب النظرات، ومنصورة لا تزال كفتاة رشيقة القوام لم تهدها السنون، لكن فارقتها رائحة السعدة والريحان، ولم تعد ترتدي إكليلها البري!

وتشيعهما نظرات العجائز، اللائي لم يعدن بائرات، بل جدات لأحفاد كثر يعمرون البلاد الكبيرة.. لكنهن لا زلن يرين إكليل منصورة.. كأنه الأمس القريب! وعندما يخطر على بالهن موت صانع الفخار محترقا، يشهقن كأن شهيقهن زفرات الموت! ثم يقلن خلال زفراتهن الحارة:

«كانت منصورة قديسة.. كما كان صانع الفخار.. واحسرتي!»

ذات لحظة غارقة في تهاويم الزمن، سرقت منصورة صانع الفخار!. سرقت قلمه العتيق، الذي أهداه إليه الحزين، و الذي كان قد ورثه عن أسلافه، الذين إشتروه من أحد حراس منزل صانع الفخار الأكبر قبل آلاف السنوات!

كان قلما من شجرقنا وديان دار الريح، الذي تستوطن تحته وفي لبابه حبيبات الذهب.. كل ما يميزه أنه عتيق وعزيز على قلب صانع الفخار، فهو القلم نفسه، الذي خط به كل صانع فخار من أسلافه، أحلامهم وتهاويمهم عن البلاد الكبيرة وفيها!

فعلت منصورة ما فعلت، لأنها كانت ترغب في الإحتفاظ بروح صانع الفخار، مقيمة معها طوال الوقت.. فمنصوة كانت كتومة تظن أنها تعلم كل شيء.. وفي الحقيقة لم تكن تعلم أن البشر جميعا، وصانع الفخار نفسه، إنما هم أقبية معتمة.. العبور من ثقوبها بقدر ما هو محفوف بالمخاطر، بقدر ما هو مليء بالأسرار والمخاوف والهواجس والظنون!

VI

في تلـك الظهيرة الغائظـة كانت إنداية السرّة كحـل الليل، لا حديث لروادها سوى الشائعة التي تسربت في فضاء البلدة القديمة عن :

الجنرال الذي ضبط زوجته في فراشهما، مع أحد جنوده.. كان الجنرال قـد خرجمن مقر إقامته بعـد أن أخبر زوجته أنه سيغيـب أياما قليلة للقيام بمهمة خـارج المدينـة، إلا أن الحاكـم العامأعفاه من تلك المهمـة وعاد إلى البيـت. فتح البـاب فصادف ابنته الصغـيرة وسألها عن أمهـا فأجابته أنها داخل غرفة النوم مع الجندي،ليضع لها مرهما على ظهرها.

فهم الجـنرال الوضع وأمر طفلتـه بالتزام الصمـت، ومضى من الباب الخلفي ليختبيءبعـد أن أمر ابنته بالمكوث بمكانها وخرج من الباب الخلفي ليوهم زوجته وعشيقها، أنه لم يحضر بعد. وبعد أن فرغت الزوجة وعشيقها من مغامرتهما سألت الجندي:

«هـل أجد لديـك بعض النقود فالجـنرال ترك لي شيـكا ولا وقت لي للتوجه إلى البنك لصرفه»

ولم يكن الجندي يملك سوى ورقة نقدية من فئة المائة جنيه مدها إليها، مسكتها ووضعتها على منضدة بجانب سرير النوم. سمع الجنرال من مخبئه كل مـا دار بينهما وغادر المـكان خلسة ودون إحداث ضجيج. والجندي في

طريقــه إلى خــارج الدار حيا رئيسه الجــنرال التحية العسكريــة المعتادة ثم سبقــه نحو الباب لفتحه كما كان يفعل دائما. وبعد أن حيا الجنرال زوجته، ولــج غرفة النوم فاستحوذ علــى ورقة المائة جنيه دون علم زوجته. بعد ذلك أخــذ زوجته وابنتــه إلى محل إقامة أصهــاره دون أن يكشف الأمر لزوجته أوللجندي.

اجتمعــت الأسرة في الصالــون، فأخرج الجنرال ورقــة المائة جنيه وبدأ يعبــث بها بين أصابعه متعمدا إظهارها لزوجته. لمحت الطفلة الورقة النقدية وطلبت من والدها منحها إياها، فقال لها بصوت متزن واثق:

«لا أستطيع منحك هذه الورقة، إنها غالية عندي غلاء عمري، يمكن أن أعطيك حياتي إلا هذه الورقة، اسألي أمك لماذا؟»

فهمت الأم البرقية ومغزاها..

ولم تمضــى سوى أيام قلائل حتــى تم العثور عليها في غرفة نومها وحولها بركة من الدماء التي سالت من شرايين معصميها بغزارة!

كانــت أم منصورة الأربعينية الناحلة. نادرا ما تضحك. ولم تكن تبكي أبــدا. يبدو أن كل ما هو ضروري للبعث على الضحك والدموع، قد إنتهى بالنسبــة لها. وعندما كانــت تضحك. تأتي البسمة غامضــة مبهمة، وكأن قواها لم تعد كافية لذلك.

كانتومنصــورة تعيشــان بمفردهــن. دون رجــال في حياتهــن.. في قطية صغيرة، مسيجة بالطرور على مبعدة من «كرنك» الخزينفي طرف فناءالبلدة

القديمــة. ماتت أمها العجوز منذ زمن بعيد، دون أن تخبرها بأصلها وفصلها، بعــد أن زوجتها لأول طارق على بابها، الــذي لحق هو الآخر بأمها بعد أيام قلائــل من زواجــه منها، تاركا منصورة تنمــو في أحشائها.. وهكذا وجدت منصورة وأمها أنفسهن، تعشن بمفردهن كأنهن إمتدادا لبعضيهما. لا تأبهان لحسب أو نسب، فقد عودتهما الحياة الحرمان من كل عزيز لديهما!

لكن مع ذلك كانت أم منصورة أشد ما تخشاه، أن تفارق الحياة دون أن تترك لإبنتها سندا، لذا وفي تلك الصبيحة البعيدة، عندما همس الخزين في أذنها، بأن صانع الفخار، أفصح عن رغبته في الإقتران بإبنتها، لم تتمكن من إخفاء فرحتها، فملأت فضاءات البلدة القديمة بالزغاريد!

كان صانع الفخار، قد تقدم لخطبتها وهو يعرف خاتمته جيدا،ورغم أنه لم يخبرهما إلا أنهما كانتــا تعرفان.كما كان الخزين يعرف..لم يكن جزعا ولا منصــورة كذلك، لكن كان الخزين بين آن وآخــر تتغشاه غيمات من أسى شفيف، تمطر على الراكوبة أمام كرنكه فيبتل ترابه بالدموع!

فيشعــر بأنه ليس كما ظل يظن في نفسه: يمتلــك زمام الأمور والمبادرة.. كان مجرد ترقب إنتقال صانع الفخار إلى عالم آخر غير هذا العالم، يفجر في نفسه كل مكامن ضعفه. لذا كان عندما يخرج إلى مريديه أثناء هذا الترقب المميــت، كان يتعمــد أن يحكي لهم حكايا طويلــة لا أول لها ولا آخر، عن الموت والحياة والعالم الآخر، الخالي من الهواجس والظنون!

بــل أخذ يتعمد لــدى الجلوس إلى حواريه، أن يكــون عراقيه وسرواله الطويل نظيفاعلــى غير عادته، فكانوا يشعرون بأن ثمة شيء فيه متغير على

غــير العادة، لكــن لم يجرؤ أحدهم على النبث ببنــت شفة، إلى أن دهموه بالخبر الذي ظل يترقبه لوقت طويل:

.«أحرق العسس صانع الفخار في فناء الكنيسة»

حاول إضفاء شيء من السكينة على روحه. حاول وقف التآكل الذي كان خبر الموت يشعله ليستشرى في جسمه المهدود،كالطوابي العتيقة على ضفتــي النهر! لحظتها بدى لهم وجهه خاليا من تلــك التعابير التي ألفوها فيــه. كانت عيناه مثبتتين كجمرتين منطفئتين في رمادهما، بدى لهم كمن يحمــل أثقالا يئــن تحت وطأتهــا. وكانت كل حكاياته عــن الموت لحظتها، تطــوف فــوق رؤوسهم، التــي بلبلتها الصدمــة. لكن دون ذلــك الصوت العميق الريان بالحنين والذكريات.

«كان صانــع الفخار الأكبر يسبق عصره بمئات السنوات، وقد ورث عنه صانع الفخار الحفيد هذه الموهبة!»..

فهــو من اخترع لغة التشفير ورموز تقنيات فك الشفرة، ورسم تصاميم أوليــة للأجهزة الداخلية للجسم البشــري، أظهرت الخواص التي يتحدث عنها علماء هذا الزمان؟!.

حكاية صانع الفخار الأكبر إذن، سيطرت على فضاءات وعوالم «صانع الفخــار الحفيد» وشكلت حياته علــى النحو الذي قاد لأن يموت مصلوبا في فناء الكنيسة، كما مات صانع الفخار الجد،محترقا في قطية نائية عند أطراف إحدى قرى دار الريح!

ولــد صانع الفخــار الحفيــد في السنة ذاتهــا، التي فاض فيهــا نيل دار صباح وهطلت الأمطار الغزيرة. فتقطعت بالناس السبل، وتهدمت بيوتهم. وأنتشــرت كل أنواع الأوبئــة والأمراض المجهولة، التــي لم تكن تلبث أن تصيب أحدهم حتى يفارق الحياة!

مثــل كل أقرانه من أبناء البلاد الكبيرة، مضى صانع الفخار الحفيد، في طفولته إلى خلوة الخزين، ينهل على يديه علوم الأولين والآخرين.. وهكذا تحــددت هويته في مجتمع البلدة القديمة، حيث تعلم من والده صانع الفخار الأب لغتــه المحليــة السائدة في دار الريح. إلى جانب اللغــة العامة السائدة في البلاد الكبــيرة! تعليمه في الخلوة على يد الخزين، فتح عقله على عوالم واسعة خارج حدود هذا المجتمع المحلي المحدود الذي نشأ فيه.

كان عقلــه وقــادا، فيوما بعد يوم مع تلقي التعليــم المدني، والدراسة في الإمبراطورية التي لا تغيب عنهــا الشمس، تنامت معارفه، وأشتعل داخله صراع خفــي. لا يمكن تفاديه، بــين عالمه المحلي والعــوالم الأخرى، الامر الذيفتحــه على آفــاق لا حدود لها. فكان يسرح بخيالــه بعيدا.. بعيدا عن حدود دار الريح ودار صباح والصعيد والسافل.

الفــترة التي تلت مقتل صانع الفخار الحفيــد، شهدتالكثير من المآسي، مثــل تنامي الإحتراب القبلي وكــوارث الطبيعة،والفقر المدقع الذي شمل كل أنحــاء البلاد الكبــيرة، بعد أن هرّب الحاكم العــام وبطانته كل ثروات البلاد الكبيرة، وعاثوا خرابا ودمارا!

كان ظل السلطة قد إختفى عن بنادر وحواضر وأطراف البلاد الكبيرة،

و تصاعدت أعمال حرق القرى والسلب والنهب، وأصبح الأهالي البسطاء يقتلون بعضهم بعضا دون أسباب وجيهة.وكان الجميع يعلمون أن سبب هذه الفوضى العارمة، التي تضرب بأطنابها في كل شيء، هو الحاكم العام نفسه، الذي كان لا يزال يصر على رفض تسليم رأسه، للمحكمة الجنائية الدولية!وبطانته وعسسه وجنده،الضالعين معه من قمة رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم، في كل ما حل ويحل بالبلاد الكبيرة، بعد أن أشعلوا فيها الفتن، وزرعوها بالعداوات والغباين والإحن!

وهكذا تأجج الصراع بموالاة الحاكم العام، لأطراف ضد أخرى. حتى بلغإنفراط عقد السلام مبلغا لم تشهده البلاد الكبيرة، طوال عصورها وتاريخها الغابر.وهكذا شهدت البلاد الكبيرة الإيذان بميلاد عهد جديد من الدم والمآسي والدموع، تمخض عن الإنفصال التام للصعيد،الذي آثر الإبتعاد عن جغرافيا البلاد الكبيرة الموحدة، بعد أن أعياه إيجاد مسوغات للبقاء مع هؤلاء القوم، المغضوب عليهم والضالين!

وهكذا بدأت تنتشر الحركات المسلحة، الهادفة للقضاء على الإستعمار المحلي الذي يمثله الثلاثة الكباروالحاكم العام وحزبه.

كانت قواتالحاكم العامنذ وقت مبكر قد تحركت بعدتها وعتادها، بعد أن سلحت أطرافا ضد أخرى، واطلقت العنان لميشياتها بالعيث فسادا في دار الريح ونهبها، وقتل وترويع الآمنين من أهلها الأبرياء، الذين دفعت بهم للسير أياما وليال طويلة، عبر الحدود في رحلة تيه، هي الأبشع عبر تاريخ البلاد الكبيرة!

في تاريـخ البـلاد الكبيرة القـديم والحديث، هناك الكثـير من حالات الجنجويد، استخدمتهم السلطات الحاكمـة في جيوشها النظامية، وكقوات صديقة. للحـرب عنها بالوكالة.. مجندة إياهم من شتى البقاع. فالجنجويد نجدهـم في جيشـ إسماعيل باشـا الغازي عـام 1821 وفي صفوف الجيش الإنجليـزي المصـري في حربه ضد القـوات المهدوية،وفي مقتـل الخليفة ود تورشين في أم دبيكرات في نوفمبر 1899،حيث أظهرت الصور جنودا»سود البشرة»، ليس من الممكن أن يكونوا إنجليز أو مصريين أو أرمن!.

ونجـد الجنجويـد أيضا ضمن القوات الإنجليزيـة الغازيةلدار الريح عام 1916 وفي صـور مقتـل سلطانها علي دينار بعد عـام. وذات القوات كانت يـوم مقتل السحيني عام 1921 وبعد الإستقـلال من الإستعمار الخارجي في ينايـر 1956، وأيلولة البـلاد الكبيرة لحكومـات الإستعمار المحلي،نجد الجنجويـد ضمن مليشيات الحكومات الطائفية وميليشيات الحكام العامين التـي تعاقبت غلى حكم البلاد، والتي خاضـت بهم حروبها المقدسة ضد المهمشين في أطراف البلاد الكبيرة.

وجنجويـد دار الريح الأن بهـذا المعنى، هم إمتـداد لذلك الإرث غير الناصع،للنظم التـي تعاقبتعلى حكم البلاد الكبـيرة، حينما تلجأ السلطة في لحظـات ضعفها لخلق كيانـات موازية، لجيشها النظامـي. للحرب عنها بالوكالة. إذن إستخدام الحاكم العام في حربه المقدسة الجنجويد،ضد أهالي دار الريح البسطاء، لم يكن أمرا جديدا!

حتـى تلك اللحظة الغادرة، إثر غارة مشتركة للجنجويد وجيش الحاكم

العام. وإعتقال صانـع الفخار، ذات ليلة غاب فيها القمر وأشتد عواء الريح ذارا رمال الوديان، في عيون البلاد الكبيرة. وتكبيله بالأغلال تمهيدا لترحيله إلى البلدة القديمة لحرقه في فناء الكنيسة العتيقة!

وهكـذا بقتـل صانع الفخـار حرقا علـى الصليب، إختبـأت الأسرار داخـل شفرات رموزها، كخلفية مأساوية لأسئلـة الذات والهوّية في البلاد الكبيرة!..

لكـن مع ذلك.. هنا وهنـاك، كان شبح صانع الفخـار، يظهر للأطفال الرضـع، وهم يمصـون حلمات أثـداء أمهاتهم، فيبتسمـون في دعة وحبور، والحليب يتسايل من بين شفاههمالرقيقة.

ظل جاديـن جانو طيلة حياة معلمه الحزين ود طبلـة- ينصت بإهتمام لكل حكاياته عـن «صانع الفخارالأكبر» الذي ولـدفي اللحظة ذاتها،التي بـدأت فيها الممالـك المسيحية، تتكـون على أنقاض العـالم القديم للبلاد الكبيرة، بوصول أول بعثة أُرسلت من القسطنطينية إلي بلاد النوبة، برئاسة قسـ يُدعي «جوليان» عـام 543م، بمساندة الإمبراطـورة «ثيودورا» فمكث « جوليـان « ونجـح في نشر المسيحية بـين النوبيين، والتي كانـت أساسا قد أوجدت لنفسها قاعدة في البلدة القديمة، قبل عدة قرون. ثم خلف «جوليان» «لونجينسـ» في عام 569م، والذي قضى فترة سبعة سنوات، وهو يعمل بين النوباطيين، ثم سافر إلي الصعيد عام 580م.

وقتها كانت مملكتي «النوباطين» و»علوة» تؤمنان بمذهب اليعاقبة، بينما كان أهل «المغرة» يدينون بالمذهب الملكانيّ. وعندما إتحدت مملكتا النوباطين

والمغرّة فيما بين عامي –650 710م وصارتا مملكة واحدة، مكًن إتحادهما من قيام مقاومة قويــة ضد غارات العرب من ناحية، وإنهــاء الصراع السياسي الديني والطائفي من ناحية أُخري، مما ساعد علي التطور الثقافي.

إذن كان ميلاد من سيعرف ب»صانع الفخار« في كل مرة يولد فيها،تكون هــذه المرةبمثابة لحظة فارقة من منعطفات تاريخ سهل البلاد الكبيرة،بما تحمله روحه من روح ذلك العصر، بلحظاته المتحفزة بالعبقرية والجنون..

لحظــات تمثل عالما بكامله، بقدر ما أنطوى على الأسرار الباطنية والسحر والدجل والشعوذة وجرائم وإحتيــالات الساسةالطائفيين الأفاقين وأرباب السوابــق في تجارة الرق. حفــل بفنون المعمار وهندســة الزراعة، ونمو الثروة الحيوانيــة والغابية، و الصناعة والتجارة.. و.. ويقال أن صانع الفخار الأكبر، هو من أعطى طريق الملح ودرب الأربعين إسميهما؟!

فــدرب الأربعين الذي يبدأ من الفاشر، علــى تخوم الصحراء الكبرى في دار الريح، وينتهي عند إمبابة في صحراء الجيزة، في الجوار أسفل النهر.. توضــح خرائط صانع الفخار العديد من المواقــع على إمتداده. خصوصا أن للطريق نفسه إمتداد آخــرا، يبدأ من الفاشر ويتوغل غربا ليصل دار الريح، بممالك الجوار القديمة. حيث منبع الرِّيح عند تخوم الأطلسي الرهيب.

إذن كان الطريــق «درب الأربعــين» يتكيء علــى صحرائه،بين عالمين يقفــان عند شفاه الشمس وهي تبتســم، من وراء البحر الملون. ووهي تنهي إبتسامتها عند الأطلسي وتغيب.

في تسفاره عبر هذا الطريق من الفاشر إلى أمبابة، حسب الأيام والليالي

فوجدهـا أربعين يوما وليلة. فأطلق عليه إسـم «درب الأربعين» ومنذها سار بصيـت الطريق الركبان والحداة، حتى تناهى عبر التاريخ إلى جادين جانو، الآن.. وهو يكابد ما يكابد، من أحلام صانع الفخار والخزين المنسية، متأملا أفق البلاد الكبيرة الرحيب، من خلف نافذة غرفته المطلة على مقرن النيلين.

كان تاريـخ «درب الأربعـين» إذن – على حسـب خرائط ومخطوطات صانع الفخار، التي حصل جادين جانو على بعضها –بطرق غاية في السرية والتكتـم– منذ منتصف القـرن الأول قبل الميلاد. فرضتـه ضرورات فك العزلة، والتواصل بين شعوب سهل البلاد الكبيرة والجوار.

أشـار صانع الفخار في مخطوطاتـه إلى طرق أخرى، ظلت تربط شعوب سهل البلاد الكبيرة الواسع بالعالم. وهي الطريق الذي يربط بين دار الريح والممالك المنتشـرة، في حوض تشاد ويمر بكبكابية، ومنها الى كردفان وسنار وشندي والبحر الملون.

بعـد مئات السنوات سيصبح هـذا الطريق، هو الشريان الحيوي الذي يربط دار الريح كلها،بمنبع الرِّيح على تخوم الأطلسي، كما يربطها بالأراضي المقدسة، خلف البحر الملون في دار صباح.

فعبرهـذا الطريق يمضـي الحجيج من «كانم وبرنو» مـن ممالك دار الرِّيح العريقة،في طريقهم إلى الحجـاز. حجيج كثيرون تتقطع ببعضهم السبل بين الأهل والأوطان، وبعضهم يطيب له المقام إختيارا، وآخرون يتم ترغيبهم من سلاطين دار الريح الأقوياء، لتعليم الناس فيقيمون ويصبحون فيما بعد أحد المكونات الأساسية، لشعوب سهل البلاد الكبيرة الواسع.

ثمــة طريق آخر يربــط دار الريح بطرابلس وتونســ، يوليه صانع الفخار أهميــة خاصة، لا تقل عن أهميــة درب الأربعين. إذ تعود أهميته للإهتمام المتزايــد لدى سلاطــين دار الريح الأقويــاء، بالحصول علــى الأسلحة من شمــال أفريقيــا لتأمين مملكتهــم، التي برزت على نحو مباغــت من أعماق «جبــل مرّة»،لتمثل منارة تلقي بضؤها علــى دار صباح ودار الريح الكبيرة حتى تخوم الأطلسي.

وهو أيضا لا يقل أهمية في مخطوطات صانع الفخار، عن الطريق الذي يربط فاشر السلطان بأسيوط، في منحدر النهر الموازي ل»درب الأربعين».

كانــت كل هذه الطرق، تحمل في داخلها عوالما صغيرة متحركة، تتمثل في مجتمع القوافل، المنظم تنظيما دقيقا، لا يخلو في إدارته من تراتبية تعني بــكل شيء. حتى جوانــب الأمن تجــاه هجمات قطاع الطــرق، ولصوص الصحراء والجنجويد.

وهكذا كانت حركــة مجتمعات القوافل وأنشطتهــا، لا تهدأ منذ نقطة البداية حتى نقطة النهاية.

بعــد مئات السنــوات في محطات هــذا الدرب، عــثر الكشاف «جاك رينولــد» على مخطوطــات مهمة لصانع الفخار. أدى فــك شفرات رموزها، لإكتشــاف أن «وادي هــور» في دار الريح هو نهر قديم بطول ألف كلم،حيث ينبع من هضبة جبل مرّة ويلاقي النيل بالقرب من «دنقلا العجوز».وأنه كان يستخــدم أيضا –نهر هــوّر– لربط دار الريح بالبلــدة القديمة، حاضرة البلاد الكبيرة.

إهتمـــام سلاطين دار الريح الأقوياء المتعاظم، بكل هذه الطرق، وخاصة درب الأربعين وطريق الملح، ترتب عليه التجهيزات الكبيرةالتي تجري على طـول هذه الطرق، من حفـر الآبار وصيانتها،وإقامــة الحبوس لتأديب قطاع الطرق،وإقامة الربط لعابري السبيل والحجاج فيما بعد.

وربما السبب الأساسي لهذا الإهتمام، هو أن السلاطين وجيوشهم، كانوا هم الممولين الأساسيين للقوافل، وكما أن الطريق «درب الأربعين»إرتبط في وجداناتهــم، بأحداث دينيــة هامة عبر السنوات.. آخرهـا تلك الكساوِّي، التـــي كان يبعثهـا أولئك السلاطـين إلى خدام الحرمــين الشريفين، وأهل الحجاز الفقراء والمعدمين!.

وبإستثناء المعلومات التي أوردها صانع الفخار، لم يهتم أحد عبر العصور بإعطـاء أي نوع من المعلومات، التي تميط اللثام عن هذه الطرق، سوى ما تم تناقله شفاهيا وغذاه الخيال الشعبي.

VII

يسأل أحدهم حمد الأعرج:

«يعني يــا عم حمد العرب ديل هم عرب بطاحين ودناقلة وفور وشكرية وهدندوة ودينكا وأنقسنا ولا عرب تانيين؟»

«عرب وبس.. عرفت عرب يعني شنو؟يعني العرب، العرب، العرب»

«لكن بقوا عرب كيف؟»

«يا إبني ديل من يومهم عرب»

«طيب الجعليين ما جدهم الفضل بن العباس»

«يــا إبنــي ده كلام جرايد ساكــت.. الفضل ده وحياتــك كان عاقر.. القصة تاريخ ولا كوار..»

«طيب جو من وين؟»

«سؤال زي ده إلا يرد عليهو المهدي»

«واشمعنا المهدي؟»

«لأنو دنقلاوي من جزيرة لبب، وكمان بعد ده كلو جده الرسول.. موش حاجة غريبة؟!»

خدم صانع الفخار كمهندس للقصر الملكي في علوة، وكمهندس زراعي في المغرّة، وكمهندس طرق في سوبا، وتنقل في أرجاء البلاد الكبيرة، متتبعا صوّى الساري وعلامات الطريق، التي تفضي بطريق الملح إلى تخوم ممالك الساحل. أو تقود درب الأربعين عبر منعرجات اللوّى إلى منحدر النهر.

وبحسب «الخزيـن طبلة» أن صانع الفخار الأكبر ولد في «جبال كتري» في قلـب البلاد الكبيرة، وتعلم على يد «الفقـرا الرحل»، وعمل في طفولته مزارعـا بالأجرة في «حلالات وقرى دار الريـح»، وعندما إشتد عوده إرتحل إلى دار صباح. فكان له ما كان في قصور الممالك النوبية.

كتاباتـه ومخطوطاته كتبت بلغـة الفور والنوبيـة القديمة،المزوجتين في لغـات الصعيد ودار صباح، ما جعل هذا المزيـج اللغوي المحير من الرموز، عصيا على البوح بكل مكنونات ما يريد صانع الفخار أن يقول؟!

بإنتقالـه من دار الريح، التي تعتمد في حياتها، على مياه جوف الأرض و المطر، إلى دار صبـاح التي يشكل النيل شريانها.. وأمام رهبة هذا النيل، إبتدع صانع الفخار طرق الرّي الفيضي والحوضي.

«كان صانع الفخار يمتاز بخيال واسع وأصابع ماهرة».

عندمـا شعر من حوله في القصور،بتنامـي نفوذه. أخذوا يدبرون المكائد للقضاء عليه!

فوقتهـا كانت بطانة الحاكم العام، قد فرغت لتوها من التخطيط، لفرض سلطتهـا وتكريسهـا لأطول وقـت ممكن. بإستخـدام الأفـكار والأهداف

السياسية النابعة من عقائد الناس، وتوظيفها لخدمة الحاكم العام. فقد كانت هذه البطانــة تعتقد أن عقائد الأهالي ليست مجــرد عقائد فحسب، إذ هي أيضا نظــام سياسي واجتماعي وقانوني وإقتصــادي، يصلح لصياغة البلاد الكبيرة كدولة إلهية! تستمد حياتها وسلطانها على الناس، مباشرةمن الإله الذي يحكم العالم!

وكان أن حدث أن قام بعض العسس المتطرفين، بمحاولة قتل أحد زعماء الجوار، وحرق مركزا تجاريا ضخما عند تخوم الأطلسي الرهيب، منذها وقد توجهت الأنظار والإهتمامات،إلى ميليشيــات الحاكم العام وحزبه الحاكم. لدراســة أفكاره وتحديد مدى خطورتها، علــى أمن وإستقرار البلاد الكبيرة والجنس البشري بعامة.

وهكذا أخذ العالم يعقد المؤتمرات تلو المؤتمرات، للوصول إلى نتائج بهذا الشأن.

كان صانــع الفخار الحفيد يرى: أنــه لايوجد فرق بين أفكار هذا الحزب وعقائــد الأهالي، فعقائدهم هي نفسها ما عبرت عنــه بطانة الحاكم العام في حزبهــا، وهكذا لم تعد المشكلة في الأفكار التي يحملها حزب الحاكم العام بحد ذاتها، بل في مصدرها وطبيعتها وكيفية عملها في الناس، لدرجة تقبلهم تهديدها لحياتهم!

إذ لم يكــن صانع الفخار يرى فرقا بين هــذه العقائد وتجلياتها ومظاهرها وممارساتهــا العمليــة، في خطابات الحاكــم العام. لذا لم يكــن يرى أن من الخطــل الفصل بين أفــكار هذا الحــزب، والعقائد التي يؤمــن بها الناس!

كطريقة وأسلوب للحياة محتشد بالنواهي والأوامر والفساد والإفساد.

كان صانـع الفخار يدرك أن هذه العقائد تخرج عن حدود خصوصيتها، لـدى تأويل حزب الحاكم العـام لها، بما يخدم أغراضـ السلطة وأهدافها. ويؤمـن لها وجودا شرعيا هي بحاجة إليـه. ولذلك كان يرى الأمور بطريقة مختلفـة. إذ يعتقد أن إيمان البعضـ أو إلحادهم، هو شيء يخصهم وحدهم، وفقـا لقناعاتهم الفرديـة. وذلـك أن القناعات لا يمكن حسمهـا بقرارات السلطـة. وهكذا طوّر مفهوما للحريـة والإختيار، شاع كثيرا في أنحاء البلاد الكبيرة، وعجل بتآمر بطانة الحاكم العام عليه!

وكان صانع الفخار عندما ينظـر لكل هذه الطوائف، التي أنشأتها بطانة الحاكـم العام.يـدرك أن البلاد الكبـيرة كوطن تمضـي إلى حتفها، بحلول الطائفة محل هذا الوطن، الذي هي نقيضه!إذن كانت الطائفية بمرور الوقت قد سادت، وتوارى سهل البلاد الكبيرة – الوطن..وتفشى القمع والفقر في كل تفاصيل الحياة،لكن منذ تلاشت الفروقات بين عقيدة الناس وممارسات الحاكم العام.. لم تعد البلاد الكبيرة «كوطن» تحتمل هيمنة الطوائف، التي تنذر بتهديد وتبديد كل ما هو جميل.

في قيلولاته المتباعدة، كان صانع الفخار يتكيء على جذع النيمة العجوز، علـى مشـارف البلدة المترعة بالأسـى والأحزان.. يلقي برأسـه إلى الخلف، ويغمض عينيه. فيتداعى إلى فضاء ذاكرته صوت الحزين، يحدثه عن الطائفية وخداعها للناس وإستعبادهم. وإنتزاعها لأحلامهم من بين تلافيف أشواقهم وتطلعاتهم. لتشيـد إمتيازاتها الخاصة. وسلطتهـا وسلطانها عليهم! فالطائفية

كحـزب الحاكم العـام. لا تأبه لخير المجتمع ورخاءه. بـل تتعيش من تخلف الناسـ وجهلهم. ولتكريس ذلك تتحالف مع كل مـا من شأنه القضاء على معارضيهـا. الذين لا تتورع عن قتلهم معنويا، وإهدار دمهم بتكفيرهم وتنفيذ الحـدود فيهـم.. إرهابهم ومحاربـة كل ما يمكن أن يجود بـه العقل البشري لتنميـة حياتهـم!إذ ترى أن مـا تطرحه مقدسـا، يستمد نفوذه مـن قدسية العقائـد، وأي إختلاف معه هـو إختلاف مع المقدسـ نفسه!وهو ما سيهدد البلاد الكبيرة بالزوال، إذ يعصف بالمجتمع، لأنه خارج وجدان الأمة!

كان الخزيـن يـرى أن التشريـع لحياة الناسـ، يجب أن يكـون متعدد المصـادر. فحياة الناس وميولهـم أوسع من أن يتم تحديدهـا بمصدر وحيد، يتقاصر عن شمول ما بلغه العقل البشري وحياة الأهالي من تطور!

إذن تمكنت الطائفية وحزب الحاكم العام آخيرا من تحويل إنسان البلاد الكبـيرة، إلى حطام إنسان فقير معدم، وضعيف تتناهشه المجاعات وينهش بعضـه البعض، فكان صانع الفخار يفكـر في السبيل لتحرير الناس والبلاد الكبيرة، بإسترداد روحها السليبة بسبب الإستخدام السلبي لوظيفة الدولة ومؤسساتها، من قبل الذين يدعون إمتلاك الحقيقة المطلقة،وإحتكار المعرفة بعقائـد الناس.وهم في الواقع حراسا للنوايا وفقهاء للظلام! الذي يسيطرون بـه على العقـول والحياة. فيحققـون اغراضهم الدنيوية، التـي تتناقض مع القيم المعلنة للعقائد.وهكذا يتم تعميم أنماط الإستغلال والإستعباد والقهر الإجتماعي كواقع لايمكن تغييره.

لـذا كان صانـع الفخار منشغل البـال دائما، بإيجـاد السبيل للإرتقاء

بمفهــوم للقانــون، ينظم حياة الناســ دون أن يهيمن عليهــم.. قانون يغذي التسامــح المفقود، ويعيد البلاد الكبــيرة إلى مسارها في التاريخ.. كان يحلم ببلاد تخلو من الدّم والتطرف والإنتقام.. بلاد تتقلص فيها الأنشطة الهدامة للطوائــف والجماعات، و يحمي القانون شعوبها بشــكل متساو.. حيث لا توتر أوإقتتال.

إذن بمــا تنطــوي عليــه منحوتاتــه ومخطوتاته مــن روح ثوريــة، ألهمت الحــركات المسلحة في أطراف البــلاد الكبيرة، كانت أفــكار صانع الفخار، تخيــف كل الذين ارتبطوا بحزب الحاكم العام وطوائفه.فخشيوا من النتائج التــي تختبيء خلفها، وهي النتائــج نفسها التي حفلت بها معتقداته، حول أسئلــة ذات وهوية البلاد الكبيرة. فصانــع الفخار كان يؤمن، بأن العقل هو الذي سيؤهلنــا يوماً ما، لمعرفة الإله المهيمن علــى كنائس الممالك النوبية، وأي إله آخرتقترحه الديانات السابقة أو اللاحقة.

هــذا الإعتداد بالعقل، دفع رجال الديــن إلى مطاردته، وتدمير ما طالته أيديهم من أعماله، بغرض أن يذكر التاريخ أنهم فعلوا كذا وكذا فيشتهرون! لكن التاريخ خيب ظنهم، ولم يذكر إسم أي واحد منهم! فظلت هذه الحقبة بحد ذاتها لغزا محيرا؟!.

الملكة النوبية (الكنداكة) التي رغم إعتناقها ونشرها المسيحية في قومها، حافظــت على إرثها السابق، لكن ما توفيــت حتىأصدر كبير وزراءها أمراً بمســح إسم صانع الفخــار، من كل نقوش الكنائســ النوبية، وتدمير معمل صانــع الفخار في «سوبا» تدميرا كاملا. كما حرمــت الكنيسة النوبية صانع

الفخار نفسه «حرمانا كنسيا» بتهمة الهرطقة!

وهكذا عاش صانع الفخار أيامه الآخيرة مطاردا، إلى أن تم إحراقه ذات صيف غائظ، في ساحة الكنيسة الكبيرة التي يلتقي فيها نهر هوّر بالنيل في دنقلا العجوز؟

قتـل صانع الفخـار الأكبر بالطريقـة ذاتها، التي قتل بهـا صانع الفخار الحفيد، فمات وحيدا حزينا أسيانا وآسيا تشيعه آلاف الحسرات!

VIII

في تلــك الظهيرة البعيدة، وعلــى الطرف الآخر من البلــدة العتيقة، في اللحظــة نفسها، التي صعدت فيها روح صانع الفخار، تطوف في سماء البلدة لمكفهــرة، كانت إنداية كلتوم الفدادية، تشهد فصلا مشابها لما يدور في إنداية السرة كحل الليل .فقد بلغ السكر مبلغه بالجميع، فأخذوا يتفاخرون ببطولات وقصصــ من وحي القمع العنيــف الذي كانت تشهده البلــدة القديمة هذه الأيام بعد أن تولى إدارة جهاز الأمن فيها. جزارا مروعا. استأسد على الاهالي البسطاء بجبروته فكانوا في الحقيقة يحسبون له ألف حساب في العلن، بينما يمضون ســرا في الإندايات يلوكون سيرته، ويشيعــون أسراره، خصوصا التي تتعلق بخوفه من زوجته وتضاءله امامها. حتى ليصبح كالحمل الوديع!

كانــت الزوجة من طينة النساء اللواتي، يســرن على حل شعرهن.. تحيا حياتهــا كما تريد، دون اكتراث لأي شيء، فقــد دأبت على معاشرة الشبان والمراهقــين بدون حسيب أو رقيب، الذين لم يكن زوجها عندما تتناهى إليه تقاريــر البصاصين عن أحدهم لا يجرؤ على التعرضــ له خشية أن يتسرب الأمــر إلى زوجته، فلا يتعرضــ للعشيق المعني إلا بعــد أن يأتيه البصاصين بتقاريــر أخرى تؤكد أن زوجته ما عــادت تربطها صلة بالعشيق المعني، الذي لــن يلبث أن يختفي في في ظروف غامضــة دون ان يخلف وراءه أثرا.. كانت زوجتهقــد بلغت حدا مــن الجرأة باتت معهتستضيــف عشاقها علنا، تارة في

وضـح النهار وأخـرى خلسة، بمحل إقامتها المحروسة ليـل نهار، بالبصاصين والعسس.

وذات يوم حضر الـزوج، على حين غرة وضبط زوجته في أحضان شاب بغرفـة النـوم ولم يحرك ساكنا كأن الأمر عادي جـدا، إذ ظل متسامحا فوق العادة اتجاه زوجته، في الآن نفسه كان يمضي ليبث رعبه في البلدة القديمة!

إنداية كلتوم الفدادية كغيرها من إندايات البلدة القديمة، لا تتوقف عن تنـاول فضايح البلدة القديمة، ولا يكـف روادها عن المعارك الصغيرة التافهة، والتفاخـر والمبالغات، إذ ما ان تلعب المريسة برؤوس روادها حتى تسمع أبكر يقول اعبد الله الجلابي:

«ياخـي كان درت الرجالة تلقى في دارنـا. وفي دارنا في بيتنا، وفي بيتنا أنا واسحـاق أخوي..وكان قربت إسحاق داك نـار وولعت. وكان جيت علي أنا أبكر ده، أخير تقبل علي نارك»

«أنا والله حجابي ده الرصاص ما ياكلو»

«هـاي رصاص وين.. أنا والله الرصاص ينزل فوق، وكان مكضبني أسأل حليمة.. شافت بي عينا»

وينعطفون بالحديث إلى منحى آخر:

«البارح إسماعين دق مرتا»

«سوى شنو يا ربي؟»

«إنت ما عارف؟! المراقالت ما بتسوي المريسة!»

«الله ينعل مرا تاركة الصفاية!»

«تاركة الصفاية منو بيقعد في جوديتها؟»

وينعطـف سمرهم مرة أخرى إلى نقطة بدايته، إذ يتذكرون فجأة غلاطهم حول الحجاب:

«والله الليلة إلا نجربي العكاز ده فوقك.. نشوف كان حجابك نافع»

وتدور العصي، وتخرج السكاكين من أغمادها وتصيح النساء:

«سجمي طعنو.. كتلو..»

بينما هم يتصايحون:

«رميتا ولد البقس.. ولد الكافرة..»

فيتدخل العقلاء ويفضون الإشتباك بالقوة..

«والله كان مـا إسحـاق اخويخجزني منك، كنت أسـل حلقومك.. قال حجابي يسوي ويسوي..»

ويعقـد لهم مجلـس الإنداية كيفما إتفق محاكمة عاجلـة.. يقول رئيس المحكمة بعد إستعراض الحيثيات:

«تسـووا دواس ساكـت.. ده كلام شبع.. الليلـة إلا تشوفو كلامنا نحن ترا.. كلامنا حار ما زي كلام الحكومة»

«انا والله قاعد ساكت نشرب في مريستي، الجلابي ده براهو جا قعد معانا»

«المشكلة وين هنا؟»

«وكــت مريسة طلعــت في راسو، قال حجابو أحســـن من حجابي.. ونبذ حجابي.. طقاني بالعكاز فقمت طقيتا»

«وانــت يا الجلابي طويرة البقر، الدواس كلــو جبتو إنت.. قولك شنو في كلام أبكر؟»

وكان الجلابي يدرك أنهم سينحازون لأبكر:

«مــا عندي قول غير كلمة واحدة بس، كلام أبكــر ده كلو غلط.. هو بدا الدواس.. و»

وهكــذا تستمر محكمــة الإنداية المنعقدة تستمعــإلي مغالطات الجلابي وأبكر.. بينما تبدأ الساقيات المتعاطفات مع أبكر، بما يحملنه من بغض مكتوم للجلابة،على خلفية تاريخهم في جلب الرقيق، تتغامزن:

«هي يا يمة هي.. شوف عيني الجلابي بال في لباسو»

فيشعــر الجلابي أن أفضــل شيء بإمكانه فعلــه الآن، هو الخروج بهدوء. وأن لا يعــود إلى هذه الإنداية مرة أخرى أبدا.. فأرض الله واسعة والإندايات كثيرة..

في هــذه اللحظة نفسها، التي تسلل فيهــا الجلابي خارجا متعذرا بقضاء الحاجة،في تلك الظهيرة البعيدة. وفي هذه البلدة المتكئة على مقرن النيلين.و بينمــا كان الأب جميــل قسيس الكنيســة العتيقة،الذي بــدى معتلا.. لا بسبــب الإعتكاف وقلة النوم والطعام، بقدر ما كان بسبب مشاعر غامضة لا

يــدري كنهها، ظلت تتناهبه لأيام. أخذ القس يعد التحضيرات،مجهزا نفسه للقداســ، بعد إعتكاف دام لشهور طويلة.. فيمــا لامست أنفه رائحة غريبة! هي مزيج مــن رائحة أوراق الشجر المعطونــة في مستنقعات البلدة الصغيرة، ورائحة رّوث الحيوانات!

فبدى له ذلك غريبا! فالمستنقعات كانت جافة، بسبب عدم هطول المطر، أو فيضــان النيل ذلك العــام.. فأراضي البلاد الكبــيرة كانت قاحلة..وكل النباتــات قد ذبلت. وكل الأعشــاب قد جفت منذ أمــد طويل، وأصبحت هشيمــا كالهبود. لــذا كان من الغريــب أن تتحسس خياشيمــه، مثل هذه الرائحــة التي عبق بها الهــواء، الذي يحيــط بالكنيسة.وكأنما البلاد الكبيرة تعيش إحــدى خرائفها المنصرمة، منذ زمان بعيــد!.. لم يجد القس تفسيرا لهذه الرائحة.

ترك القس كل شيء ومضى لا يلوي على شيء.

في طريقــه مــرّ بجمهرة مــن الناس، حــول سجن البلدة. الــذي كان في مساحتــه، أكبر من مساحة البلدة نفسها! ففكــر في السجناء الذين تعاقبت عليهــم الفصــول، دون أن يــروا أهلهم!.. ثم عــبر إلى الفناء الــذي يتوسط البلدة،حيــث سوق ود أمجبــو الورا السوق الصغير.. الــذي كان خاليا من المــارة ودكاكينه مغلقة. لم يكن هنــاك سوى دكانا واحدا غير مغلق.. إقترب منــه.. كان مهجورا، رفوفه خالية.. ويبــدو أن صاحبه هجره منذ وقت طويل، وقــد عبقت فيه تلــك الرائحة.. الرائحة نفسها التــي حاصرت الفضاء حول الكنيسة، وأنتشرت في فضاء البلدة!

كان شعــورا غامضا هو مــا يسيطر علــى القس لحظتهــا، فأنحنى يصلي ليحفظ الرب البلدة، التي كانت تمضي بخطى حثيثة، نحو نهاياتها الوشيكة! كان حدسا خفيا يجعله يوقن أن ثمة هلاكا وشيكا!

وهــو منقطع في صلاته عــن الدنيا، سائلا الرب الغفــران والرفق بشعب البــلاد الكبــيرة،كان متعبا.. حتــى أنه أثنــاء صلاته، كان يغفو بــين الآونة والأخرى بعينين مفتوحتين. إلى أن رأى ضوء ساطعا، وضجيجا عاليا يتخلل الضــوء، الذي تشبعت به الرائحــة، التي إستشرت في فضــاء البلدة. فأخذ كل شيء يدور أمام عينيه: الدكاكين المهجورة، بقايا الشجر الجاف، الدروب الضيقة..

لم يكــن يــدري كم من الزمن إستمر على هذا الحال، إلى أن إنتبه أنه لا يــزال في فناء الكنيسة، التي لا يدري كيف عاد إليها؟ بل إنتابته الظنون، أن كل ما حدث ربما هو أضغاث أوهام!

كان الهواء المشبع بتلك الرائحة يجرح رئتيه، فيشعر بالألم والضيق. عند دخولــه إلى حيث يقــام القداس، كان يعرف..كما ظل دائمــا يعرف أنه بين يــدي الرّب. فإذا خطرت بباله فكرة ما،كالخواطــر التي تشعلها هذه الرائحة، التــي هيمنت علــى كل شيء،تحول الخاطرةدون تركيــزه في الصّلاة. و لهذا السبــب لم يقدر على إكمال طقوس القداس. فمضى يخلع ملابسه و يغلق عينيه، عسى أن ينام فتهدأ خواطره!

تناهــت إلى مسامعــه أصوات مختلطــة.. متزاحمة في بعضهــا البعض، فأرتدى ثيابه على عجل. وخرج. كان أهالي البلدة كأنهم ينشقون من جوف

الأرض. يتزاحمون حول الكنيسة. أخذ يستعرض وجوههم،إلى أن توقف عند صانع الفخار، الذي كان مقيدا يرسف في الأغلال.. يحاصره رجال الحاكم العام من كل جانب.. توقف يتأمله طويلا..

بدى له صانع الفخار أنيقا في إبتسامته، التي لا يتغشاها الخوف أو الوجل.. كانا يعرفان بعضهما، فصانع الفخار الذي كان ينتظر المصلين لدى خروجهم من الجامع ظهيرة كل جمعة، ليخطب فيهم. كان يفعل الشيء نفسه بالخطبةأيام الآحاد، في المصلين الخارجين لتوهم من الكنيسة، بعد فراغهم من صلاتهم. كان القس يستمع إلى خطبه بإهتمام، ثم يهز رأسه وينفلت إلى داخل الكنيسة، إذ كانت خطب صانع الفخار، التي تخلو من الغيبيات،تذكر القس بفخار المعابد القديمة!

مع ذلك كان يحب مبالغتها في رصد حياة الناس.ويبتسم حين يتذكر أنهم أنفسهم، لا يدركون حجم ما يعانونه!لذا كان يعتقد أن من الخطل تبصيرهم بذلك وجعلهم يتذوقونه! ولهذا السبب بالذات حرص في صلواته، أن يستخدم كلماتا ورموزا إيمانية عاطفية، تطمئنهم أن كل شيء على ما يرام، وأن الله إذا أحب العبد إبتلاه! وأن الفقراء يدخلون الجنة! وأن المغرضين وحدهم من يريدون تصوير الحياة لهم، بعيدا عن ملكوت ورحمة الرب، الذي تقدست أسماؤه في الأعالي.. فالأرض ملأى بثمارالحب والسلام وما عليهم سوى قطفها؟!

كان كلاهما –صانع الفخار والقس- يعلمان أن الأب جميل كاذب أفاق، مثله مثل إمام جامع سوق ود أمجبو.. إذ يستغلان عقائد الأهالي

البسطاء،التــي تجذرت بأسرارها في القــرون البعيدة، لإفهامهم أن السلام في متناول أياديهم، التي ما عليهم سوى مدها!

لــذا في تلك اللحظة الفارقة، التي أدرك فيها القس أنها اللحظة الأخيرة، لصانــع الفخــار قبل أن يغادر الحيــاة، إلى حيث الأعــالي، ليسبح في النيران السرمدية المفزعة،جزاء أفكاره الشريرة التي تريد تغيير حياة الناس!

في الحقيقــة لحظتها كان صانع الفخار، يفكر على نحو مختلف. فمن قلب وحدته البديعة في التاريخ.. وهو يحاول تحريك يديه المغلولتين، كان يرى كل شيء مختلفا، وهو يشعر بدنو الأجل للقاء أجداده من صانعي الفخار العظام، حيث الأنهار الفريدة للخمر واللبن..

كان مظهــره ملفتــا للنظر في هــذه اللحظة بالذات، أكــثر من أي وقت مضى. بشعره المجعد الغامق، ووجهه الدائري، الذي إختفت منه التغضنات والأخاديد، التــي لطالما برع الدهر في رسمها. شفتــاه النديتين غم يباسهما، حتى عينــاه.. كانتا ثاقبتين رغــم الشحوب، الــذي لاح عليهما بشكل غير مألوف!

«كان شكله حقا ملفتا للنظر»

هكــذا ظل القس لسنوات عديدة يتنهــد، أثناء خطبه المكرورة، التي لم يعد أحد يأبه للصلاة في الكنيسة لسماعها.. هكذا كان يتنهد.. كلما خطرت ســيرة صانع الفخار، التي لا تخطر علــى باله، إلا أثناء إلقاءه الخطب. إذ كان شبــح صانع الفخار يطارده أثناء خطبــه المكرورة، بتلك الهيئة غير المألوفة، في تلك اللحظة الفارقة بين عالمين.

الأهــالي الذين كانو متحلقين حوله في تلــك اللحظة، كانوا يجزمون فيما بعد، بأن العسس عندما أشعلوا فيه النار،بدى غارقا في مطر العينة الغزير..

«كان مشرقــا يرفل في سعــادة خفية، كما لو كانت النــار تغسله من كل خطايا البلاد الكبيرة».

في اليومالذي أعدم فيه صانع الفخار صلبا وحرقا، إختفى الحزين ودطبلة، كأنــه لم يكن جزء من نسيج هذه البلدة المعذبة يوما، ثم لم تلبث أن تواترت عنه الأخبار، فالبعض يقول أنه رآه أثناء نومه:

«لكن وجهه كان يشبه شيئا لا شبيه له!»

البعض الآخر ممن زعموا رؤيته في سرهم،تكتموا على الأمر ولم يفصحوا عنــه، إذ كانــوا يحاولون جهد طاقتهــم تجنب تحقيقات عســس الحاكم العام وحزبه، فكانو يتدربون على أنفسهم في القيام بدور المتحري.

وفي الحقيقــة لو أنهم ذهبوا الى العسس، لما تغير شيء في المسألة، إذ ليس بإمكانهم تقديم أي حقائق عن رؤيته،أو المكان الذي يختبيء فيه الآن، أو آخر مــكان رؤه فيه،قبــل أن يبلغوا العسس! إذ ليس لديهــم أي براهين أو دوافع محــددة، فهم ليسوا على يقين.. حتى.. من أنهــم متعاطفين معه، ومع صانع الفخار أم حانقين عليهما؟! كما أنه كان قد تولد فيهم إنطباع عام—مثل كل الأهالي- باللامبالاة،وبلا جدوى أي شيء.

فعندمــا يفكرون في الأسبــاب، التي تجعل العسس يجــدون في البحث عنــه، لا يتمكنون من إيجاد إجابات شافية، فيرمــون برؤسهم إلى الوراء وهم

يتنهدون:

«على أية حال الخزين هو الوحيد الذي يملك أدلة براءته»

كانوا في حالة من البلبلة جعلتهم لا يميزون، أو يخطر على بالهم سؤال:

«البراءة من أي شيء؟ وماذ فعل ليدان؟ أي تهمة؟»..

إذ كان يبــدو أن سكان البلدة قد أصيبو بالخبال، وهم يرون صانع الفخار يرحــل مصلوبا ومحترقا في كنيســة توتي، ورماد عظامه يغطــي سطح النهر، فيسد القناة التي تقرن النّهرين.

بعيــد إحراق العسس لصانع الفخــار، والإختفاء الغامض للخزين. شدد العســس من مراقبتهم أكــثر من ذي قبل.. كان الجميــع يراقب الجميع كل لحظــة. في البدء حــاول الأهالي التعبير عــن إستياءهــم وسخطهم من هذه الدوامة، التي كانت تشدهــم للقاع.لكن مع إشتداد القمع كانت همتهم قد فــترت، وشعروا بأنهم تقدموا في العمر كثيرا! بل أخذوا بمرور الوقت يعتادون الأمــر، ولم يعد أحد يأبه لما يجري في البلدة القديمــة، التي توشحت البؤس والحــزن المقيم. فالعسس كمخلوقات فظة ووضيعة، تمكنت من زرع كل أنواع المخاوف والظنون، في الوجدان الهش لأهالي البلدة البسطاء! بعد أن تربصوا بهم في كل مكان، بكل ما كانوا يضمرونه من أحقاد وضغائن ضد المعارضين.

مــع ذلك ثمة شيء واحد كان يهيمن على فضاء ذاكرة الأهالي الطيبين، من آن لآخر:

شبح صانع الفخار، الذي ظل يطاردهم طوال الوقت.

IX

وفيما البلدة القديمة تعاني أحزانها، إنفجرت في الإندايات حكاية جديدة طغت على ما خلفه مقتل صانع الفخار من مناخ كئيب، إذ على نحو مفاجي فتح نظام الحاكم العام كل نوافذ إعلامه لبعض نساء كبار الموظفين للحديث عن حقوق النساء السحاقيات، وهكذا بات الجميع مشغول بالجندر، وكالادة إنقسم رواد الإندايات لفريقين، فريق يدافع بإستماتة عن المستميت عن حركة السحاقيات ويعلن مساندته لها، وفريق يقف ضد المثليين عموما في مشارق الأرض ومغاربها لا البلاد الكبيرة فحسب. ومضت الصحف التاربعة للنظام تحلل الظاهرة، وتؤكد أنها ليست ظاهرة دخيلة على المجتمع،فجل المدن العتيقةعرفت السحاق، عبر التاريخ العريق للبلاد الكبيرة.

وفي الحقيقة كان نظام الحاكم العام قد أراد شغل الناس، وصرف إنتباههم وتفريغ غبائنهم، على مقتل صانع الفخار. كإجراء وقائي، لقطع الطريق أمام أي حركة إحتجاجات محتملة.

عندما تناهى إلي مسامع صغرى زوجات الحاكم العام، خبرمقتل صانع الفخار، وإختفاء الخزين على نحو غامض،كانت لحظتها عائدة للتو، من إحدى رحلاتها السياحية خارج البلاد الكبيرة. برفقة عدد من حرسها الخاص.وكان أول شئ فعلته بمجرد وصولها قصر الحاكم، أن دخلت إلى

جناحهاوأخذتتتفقـد كل شيء حولها لوقت ليس قصير، ثم أطلت برأسها من إحدى نوافـذ الجناح. تتحسس الهواء الذي كان مشبعا برائحة الحريق والعطن.

كانــت الشمس تحط فوق أسطح، المنازل فى أزقة البلدة القديمة.. وعلى نوافذ أجنحة القصرحطت طيور السمبر العرجاء،التي جاءت في غير مواعيد هجرتها. تنهدت زوجة الحاكم بشجن. وتراجعت إلــى داخل جناحها. وقد خيم على فضــاء القصرصمت يشعل فيها الإحساســ الغامر بالإنقباض. صبت لنفسها كأسا من البنقو المغلي، وجلست تحدث نفسها حينا، وتسرح في خيالها حينا آخر. في إنتظار الحاكم العام، الذي لم تشعر بالوقت الطويل الذي مر،عندما دخل عليها بادي الإنهاك والأعياء.

سرعان مــا خلع ثيابه وأستلقى إلى جوارها،وغط في نوم متقطع.محاصرا بكوابيســ أرواح ضحايــاه. وهــو يتمتــم بإسمــي سانع الفخــار والخزين.. فأخذتتحاول أن تتذكر وجهي الرجلين، لكن كانت محاولاتها تبؤ بالفشل. إذ كان الوجــه الوحيد الــذي يهيمن على فضاء ذاكرتهــا لحظتها، هو وجه الحاكم العام.الذي إرتسم عليه كل رعب الدنيا ومخاوفها.

في هذه اللحظة التــي كانالحاكم العام يعاني فيها كوابيسه المدمرة،بدى وجهه كوجه حرباء طاعنة في السن، تعاني نزعها الأخير، على أهداب موت وشيك لا يمكن تجنبه! فأنطبعت هذه الصورة التي لا تنسى في ذاكرتها وإلى الأبد!

إذ لسنوات طويلة بعد مقتل الحاكم العام، الذي وجد مختبئا في أحدى

حفــر البلدة القديمة، إثر هبة شعبية مباغتة. لم تعد تذكر تلك الأحاسيس، التــى كانت تنتابهــا، عندما تتواثب رغباتها في حــذر وجنون. فتلتف حول شعلــة النــار المتأججة داخلهــا. بعد مرور سنــوات.. كل أشواقهــا السرية ستخمــد وتنطفيء، كأنهــا كانت تستمد جذوتها، من شعــور الحاكم العام بالحياة والطمأنينة التي تمنحها السلطة والنفوذ!

قبــل أن يحدث لهــا ما حدث بوقــت طويل،كانت عندمــا تنهض من فراشهــا في الصبيحات المتأخرة، لتستحم وتتجمل. بينما كان الحاكم العام يقف طــوال الوقت،يراقب جسدها وعينيها بعذاب لذيذ. فى أيامها الأولى بالقصــر، كان يطيــب لها وهي بقميص النوم، أن تتأمــل نفسها في جناحها الــذي يعــج بالمرايا.وفى الواقع لم يكــن هناك ثمة داع للنظر فــى المرآة، إذ كانــت تتمتع بقوام جيد، ونِسَب ممتازة للجسد و الوجه والساقين الممتلئين. اللذان دائما يبدوان كسولين، عندما تقع النظرة العابرة على جفنيها اللذان يبــدوان مرتخيين، يــكادان يقعان علــى العينين فتبــدوان ناعستين، لكن خاليتين من حشمة الزوجات.

وما ن تفرغ من تأمل جسمها، حتىتأخذ حمامها المعتاد. تجفف نفسها. ثم تجلــس لتضع مساحيــق التجميل بعــد أن تسرح شعرهــا. تفعل ذلك بنفسهــا، إذ كانت تكره الإستعانة بالوصيفــات، وتفضل خصي القصر في التدليك. وأحيانا كانت تطلب من الحاكم العام أن يؤدي هذه المهمة بنفسه.

وبعــد أن تفرغ مــن زينتها، التي كانــت تستغرق وقتــا طويلا، تحتسي فنجانهــا الأول مــن البنقــو المغلي،الــذي كانــت تفضله دونا عــن جميع

المشروبـات. وهكذا بعـد كل هذه المجهودات الجبارة، التـي تبذلها عندما تصحـو من النـوم، إلى أن تحتسي فنجان البنقو المغلـي، تشعر بأن الإجهاد والتعـب العظيمين نالا منها. فتغفو قليلا في مقعدها الممتد الطويل .لكن لا تلبـث عند الظهيرة،أن تدهم خياشيمها في تحـد جسور،رائحة البنقو المغلي التـي تضوع في كل زوايـا وأركان أجنحة القصـر، إذ تكن لحظتها زوجات الحاكـم العـام الأخريات،قد جلسـن لشرب بنقو الظهـيرة المغلي. بعد أن قضت مضجعهن ببنقو الصبيحة المتأخرة.

تنضـم إليهن.تصب لها إحدى الوصيفات فنجانا.. فتتداول معهن بعد ذلـك ما تناقلـه الحرس والوصيفـات والعسس، من أخبـار البلدة القديمة. الغارقـة في مؤامرات إقتلاع الحكـم وصراعات مراكـز القوى.كانت أسوأ أوقـات يومهـا كله، هي تلك اللحظـة التي يستلقى فيهـا الحاكم العام إلى جوارها. وهو يعوي ككلبة ينتابها مخاض ولادة متعسرة.

كانــت ترى نفسها بطريقة فيها نوع من العزاء، إذ تعتقد في دخيلتها أنها وبعد كل ما شهدته حياتها من مآسي، ونكبات. لا تزال صامدة وتقاوم ظلم الحاكم العام على طريقتها.

تحـدق في جسمـه اليابس الممـدد إلى جوارهـا. أثناء عوائـه. ثم تنقل بصرهـا عبر النافذة إلى فنـاء القصر،الذي شهـد ملايينالمؤامرات الفظيعة، التــي لن يبقى منها شيء بعد وقـت طويل. فقد كانت.. ببساطة..تشعر في قـرارة نفسها، ومنــذ أن وطأت أقدامها قصر الحاكم العـام للمرة الأولى، أنه رجليتأهـب للرحيل !لذا كل ما فعلته خلف ظهـره، بدا لها قدرا لابد منه!

خاصــة عندما يبدأشبح زوجها السابق المرحوم، الذي غدر به الحاكم العام، في سرية تامة. تطاردها..

في الليلــة الأولى التي تلت مقتل صانــع الفخار،كانت صغرى زوجات الحاكــم العــام تحتفل علــى طريقتها، وهي تنظـر فى هــدوء تتأمل جدران جناحهــا.. تمر بنظراتها على جسمه الفارع ثم تخطف، بصرها لترمي به عبر النافذة.ترتبــك.. ترد بصرها. ثم ترفـع عينيها.بينما كانهويملي عينيه في كل تقاطيعها.

كان سبب إرتباكها ليس الإحساس بالخيانة، بل شعورا غامضا لا تدري كنهــه. ربما تشعر للمــرة الأولى، أن كل ما تنعم به من حيــاة، في طريقه إلى زوال وشيك.فتنهض من بين أحضان الحارس.. ترتدي ثيابها، وتدخل إلى الحمام.

كانــت لا تألو جهــدا في مقاومة مشاعرهــا.. رغباتهــا.. أفكارها.. دون جــدوى.. عندمــا يخطر على بالها مــدى إهتمام الحاكم العــام بها ومحبته ولطفه، وشعوره المزمن بالتفاني في تعويضها زوجها المغدور!

لذلــك تفننت في معاقبة الحاكم العام علــى طريقتها، مستهلة عقابها له بإقامتهــا علاقة مع سائقه، الذي أصبح بمرور الوقــت كفرد من أفراد العائلة اعتبارا لطول مدة خدمته لها، كان يرافقها في رحلاتها داخل البلاد الكبيرة وخارجها، وغالبا ما كان يقضي معها جزءا من العطلة الصيفية. كان محبوبا لدى الحاكم العام! لأمانته في حفظ أسرار زوجاته. وفي الحقيقة بعد أن ملت منــه، عمدت لعقد علاقة خاصة بينه وبين شقيقة الحاكم العام! ثم عمدت

لتسريـب شائعة مفادها أنه عشيق الفتـاة التي كانت قد حبلت منه، والتي كان شقيقهـا الحاكم العـام قد أعدم زوجها قبل عامـين لإشتراكه في أحد الإنقلابـات الفاشلة ضده! فتناسلت شائعة أخـرى تفيد أن حملها إستمر لعامـين دون أن يحين ميعاد ولادتها، وهكذا ظهر في الإعلام عدد كبير من الأطبـاء يؤكـدون علميا أن ذلك ممكن الحدوث في حـالات نادرة، وضربوا مثلا ببقاء يونس في بطن الحوت! فأطلق رواد الإندايات على شقيقة الحاكم العام لقب «المرأة الحوت»مـن الجانب الآخر كان السائق الذي أنفق حياته في مرافقـة زوجات وشقيقات الحاكم العام، أكثر مما رافق أفراد عائلته، فاض الكيل بزوجته، فاتصلت بأصدقائه المحدودين،واستحلفتهم إقناعه بالتقليل مـن غياباته المتكررة عن بيتـه وعن أولاده، وفي الحقيقـة كان الحاكم العام وقتها قد وقع على قرارسري بإعدامه غسلا لشرف العائلة!

X

لم يمضِ وقت طويل على مقتل صانع الفخار الأكبر، حتى تم إكتشاف معمل ثان في «الكوة»، لكنه أيضا دمر على يد كبير الوزراء.

مخطوطاته ورسوماته بيعت مقايضة بالملح للتجار القادمين من مالحة.. العابرون إلى أقصى دار صباح عند البحر الملون.. هذه المخطوطات تمت عملية تحديد أماكنها،على عهد الإحتلال التركي المصري في كل من سوبا، الكوة، دنقلا، جوبا، أبيي، القلابات، الفشقة، حلايب وشلاتين، بني شنقول، قيسان، الروصيرص، الفاشر ومليط وكامل أراض فوربرنقا.

وخلال عهد حكومة «السودنة – الإستقلال» تمت محاولة البحث المكثف، عن وثائق تظهر تصاميمه ومخططاته من قبل بعثات فرنسية. فظهر وقتها إسم «صانع الفخار» للمرة الأولى، كأحد عباقرة البلاد الكبيرة، الذين عبرت أعمالهم عن روح عصر متحفز، ظل يتكون في التشظي لآلاف السنوات؟!

تصاميم أغلب هذه الرسومات، ما تزال غير واضحة. كما أن لغة المخطوطات المزيج من لغات عدة، جعلت من الصعب فك شفرات الرموز. على الرغم من ذلك ألهمت المهمشين بعد مئات السنوات، الإجابة عن سؤال الذات الذي ظل يؤرق صانع الفخار؟!

من الوثائقالتي فشلت الحكومات المتعاقبة وحلفائها وخلفائها،في إخفائها وتسربت للعلن. تلك الوثيقة التي ترصد أوجه الحياة الإجتماعية والثقافية والفنية والسياسية.. وكل الأنشطة، التي حفلت بها الممالك القديمة، في دار صبـاح والسافل ودار الريح والصعيد، عندما ثبتت المسيحية أقدامها في دار صباح القصوى و السافل والوسط؟!

بينمـا ظلت كل الوثائق، التـي إكتشفتها البعثات المتعاقبة، منذ العصر التركـي المصري.. وحتى عهد أول حاكـم عام بعد الإستقلال، تختفي في ظـروف غامضة، وتظهر هنا وهناك على نحو متباعد، في متاحف العالم ودور وثائقه، والمجالس السرية والمعلنةلأهـل الحكم والثقافة والسياسة والأدب، في البلاد الكبيرة.

بل أن الوثيقة الوحيدة، والتي هي «حجة في شكل حكم البلاد الكبيرة وكيفيتـه»، والتي كانت موجودة في دار الوثائـق المركزية، تمت سرقتها (من قبـل أحد سياسي البيوتات في البلاد الكبيرة)وأختفت في ظروف غامضة، دون أن يبين لها أثر؟!

وهكذا ظلت أعمال صانع الفخار، غير منشورة بشكل رسمي، تبعاً لمنع آيديولوجي من نشر إسمه وتاريخه. وإرثه القومي، وخصوصاً خفايا أعماله. مـا يؤكد أن هناك مؤامـرة دائمة ومستمرة لاحتواءهـا آيديولوجيا، لإخفاء أفكار أصيلـة، و إختراعات كثيرة سابقة لعصرهـا، وكل الدلائل تشير إلى أن كل ما يتعلق بصانـع الفخار، من سيرة ومسيرة، محفوظ بسرية تامة من قبـل الأمن والمخابرات، و مفوضية أحزاب البلاد الكبيرة، التي تتكون من

الثلاثــة الكبار،الذين يحلــون ويربطون ويتحكمون في تاريــخ وحياة البلاد الكبيرة على كيفهم؟!

صانع الفخار منذ طفولته الباكرة، إستهواه تشكيل الطين. فهو لم يخلق مــن النور أو النار.. بل من الطين! لذا ظل دائــم الحنين لمصدره الأول؟!. كما ظل دائم الخوف على هذا المصدر، الذي يتأثر دائما بمناخ البلاد

الكبــيرة المداري .والــذي يتميــز بارتفاع درجــات الحرارة معظــم أيام السنــة.. وتدرجــه من جاف جــدا في أقصى السافــل، إلى شبه الرطب في أقصــى الصعيد. حيث تصــل درجات الحرارة أقصــى معدلاتها في فصل الصيــف، و حيث يصــل المعدل اليومي في بعض الفــترات، إلى جحيم لا يطاق في الصعيد.

الأمر الذي يجعل الطين حزينــا متشققا عن أساه!.. ظامئا ومتوجعا.. لا تهدأ آلامه إلا بهطول الأمطارالتصاعدية، التي تتحكم في حركة الفاصل المداري. والتي يتصفبها سهل البلاد الكبيرة. باستثناء ساحل البحر الملون، حيــث المطر الشتوي يداعب التربة المالحــة، فيمنحها شيئا من البوح المبتل بالدموع!

أكثر ما كان يؤرق صانع الفخار من هموم،هو سيادة سمات الصحراء في السافــل، والهطول المتقطع للأمطــار في دار الريح. وتكرار موجات الجفاف، التي تتفاوت في طولها وحدتها، ما يجعل الطين حزينا وبائسا ويابسا ومكتئبا وكئيبا! لــولا إشفاق البحــيرات الداخلية والأودية الموسميــة عليه، لذرته الرياح في فضاء الكون الواسع، وأصبحت البلاد الكبيرة محض فراغ!

كانــت نقطــة البداية في الطفولــة البعيدة الغابرة، هــي وقوفه لساعات طوال أمام هيبة الطــين.. غموضه.. مرونته.. سيولته و قدرته على التشكل الفائــق.. وكثيرا مــا توقف أمام نفسه كمخلوق من طــين، وسرحت أفكاره في العــالم اللانهائي للطين،إلى أن أصبح الطــين منهجا يتحكم في أعماله، يصنف عبر نوعيته وهشاشتــه وصلادته: أنواع الناس وأحوالهم..والأشياء ومعناها..والأماكن وقيمتها، وكــذا العلاقات المقيمة والأخرى العابرة! بل وأحيانا «أصدقاء العلاقة»، الذين «يقفزون»على العلاقة ذات نفسها، فتروح الصداقة هدرا!..

هكذا إذن فتحه الفخار على عالم لانهائي.. لا محدود.. عالم مسكون بالحقائق وأنصافها وأرباعها، كما هو مسكون بالقدر ذاته بالهواجس والظنون والجنون!

«أنه صانع الفخار».. أو كما بدأ أقرانه يطلقون عليه، وهم يلحظون إهتمامه المتزايد بتشكيل الطين..

خــلال سنوات طفولتــه وصباه، تجمعت لديه مقتنيــات ذات أشكال عديــدة من صنع يديــه.. أشكال لبشر وحيوانات.. أزيــار وقداح صغيرة.. و..و أشــكال حلمية هــو نفسه لا يدري لماذا صنعهــا، ولا إلى ماذا تشير أو ترمز بالضبط؟!

كانــت غبطته لا توصف، عندما يأتيه أقرانه الأطفال والصبيان بطينهم، ليصنع لهم منه شيئا ما..

في مراهقته أخذت أفــكاره عن الطين، تتخذ منحى يليق بقلق المحاولة

الأولى لإكتساب المعرفة، وإكتشاف العالم. فنالت إهتمامه أنواع محددة من الطين: طين الغاباتعلى ساحل البحر الملون.. غابات القرم (المانقروف)، التي تنمو في الخلجان والشعب المرجانية، التي تأوي أصنافا متعددة من الحياة البحرية النادرة. وطين الجزر الرملية ذات الطبيعة الساحرة، وطين أم درمان الصلد، وتلك الأنواع العديدة من الطين، الذي تزخر به البيئات المائية العذبة والمالحة.

والطين الرسوبي في السافل، وطين حوض تكوينات أم روابة، وهكذا وجد نفسه ينزلق في الطين إلى دهاليز الجغرافيا و التاريخ وأقبيتهما. فامتداد سهل البلاد الكبيرة عبر ثمانية عشرة درجة من خطوط العرض، وتباين أحوال المناخ والطبوغرافيا. أدت جميعها إلى تباين النباتات الطبيعية وتنوعها. وأسهمت في تعدد وتباين أنواع الطين؟ فكان يستخدم كل نوع من الطين للغرض الذي يلائمه!

فالأقاليم النباتية المتدرجة من الصحراء في السافل، إلى الغابات المطيرة في أقصى الصعيد و دار الريح، أدت لكل هذا التنوع الطيني وأثرت فيه كما أثر فيها.

لم يكن ما لفت نظره حقا أن إستخدام الطين، في أعمال الفخار والخزفمجردمحاولة أولى، لإشباع غرور الجنس البشري، في مشاركة الخالق أعماله ومهامه الجسيمة وإهتماماته الإبداعية؟!..

إصداقا للقول.. بل هي الجرأة على منافسته، على طريقة الضالين المغضوب عليهم، وغير المغضوب عليهم.. أيضا! في الحقيقة والواقع

الأعم!.. كيف؟!

عــن طريق حرق الطين وصقله في «الكمائن والهوانيب»، تماما كما كان حال أبو البشر آدم –حسب الروايات الدينية- لحين من الدهر، تهطل عليه أمطار الفرح حينا وحينا أمطار الحزن..

إذن هكذا إكتشف –صاحبنا- النيل والخصوبة والحياة.. إكتشف عالما كاملا متكامــلا، جزيئاته تترابط في حبيبات الطين بسيولة النهر، لتعبر عن نفسهــا في الخلــود الهش؟! تبدأ بالزير وتمر بالمبخــر، وتنتهي عند كل ميلاد بشري جديد، بكل ما يحمل هذا الميلاد من خصوبة ونماء في حفرة الدخان!

للطــين ذاكــرة ووجدان يحتفظــان بآثار العصــور الغابــرة: فلكلورها.. ســير أهاليها وأسلافهم الصالحين.. مســارات صعودها وهبوطها.. أحاجيها وحكاياتها الشعبية.. ذاكرة ووجدان يحتفظان برائحة وعرق وملمس أصابع صانــع الفخار، وهي تتنقل مخلخلــة هذه الحبيبات الناعمــة، لتصوغ منها شكلامــا، ربما هــو فكرة في خاطر غامض، قد تفصح عنــه العصور اللاحقة، ليكشف المزيد من أسرار ما قبر!. وربما..

XI

البلـدة القديمـة منذ بـدأت تتشكل كبلدة عـبر التاريـخ، دائما كانت إنداياتهـا تختار موقعها على أطراف البلـدة وضواحيها،عند إمتداد السوق الـورا. من هذا الموقع المطـل على طرق القوافل، كانـت الإندايات تشرف على تقديم خدمات البلدةفي الشرب والإنسطال، والمتعة للعابرين من القبل الأربعة للبلاد الكبيرة.

وكانت ثمة حوارات معتادة تدور بـين الرواد الدائمين والغرباء، الذين يتوقفون عنـد الأندايات لوقت قصير، ريثما ترتـاح جمالهم ويرتاحون من عناء التسفار.. إذ غالبا ما تسمع حمد الأعرج، وهو يرد على تحية أحد هؤلاء الغرباء المسافرون، بعد أن يستوثق من هيئته أنه ليس جاسوسا:

«سلامات يا أرباب.. أهلا أهلا إتفضل..»

ويمد له قرعة المريسة:

«شكرا كتر خيرك ويزيد فضلك.. الحكيم مانعني من الشراب..»

«حكيم بتاع الساعة كم. الحكيم الله»

ويسألـه الغريب الذي ينخدع بهيئة الأفنديـة التي أغرم حمد الأعرج بتقمصها:

«صحيح الخواجات طلعوا القمر؟»

«إنــت بتصدق كلام الجرايد ده. علــي اليمين نوح ذاتو ما يصل القمر، خلي الخواجات. سيبك من كلام الجرايد الفاضي ده.. هسه لو مشوا هناك صحي وجا رمضان حيعرفوه كيف»

«لكن الخزاجات كفار.. ما بيصوموا؟»

«كان المابيصــوم كافر.. البلد كلها كفــار.. سيبك بالله من الكلام ده.. تعرف مريسة السرّة دي تخلي مخ الواحد شغال زي الساعة، يفهم الحاجة وهي طايرة»

علــى مبعدة كان مدمني القمار يقامــرون بالكوتشينة، على ما أحضروه معهــم من ديوك وعتان ونقود.. ما يثــير حفيظة السرّة فتطردهم وهي تصيح بعشمانة الساقية:

«إنتو ماتجو هنا تاني.. أمشو ألعبوا غادي غادي.. ده بيت مريسة محترم ولا فوضى..»

«عشمانــة .. يا بت.. أمسكــي القرعة من الشايب الأعرج ده.. تاني ما يشرب كفاهو.. عشان يقدر يمشي بيتو»

فيلعن حمد الأعرج أبو الدنيا وهو يقول:

«والله حكــم لكــن. والله كويس لكن. مــا أشــرب كان شربت. موش قروشــي وأنا حر فيها.. أنــا بشرب من زمن التركيــة ومافيش حد سمعني كلام زي ده»

«كان شربــت أكتر من كده ما بتقدر تمشــي، وتنوم لينا زي البارح هنا.. ونحنا ما بنقدر على كلامك بالليل»

«أنــوم أنا؟ طيب أسمعي علي الطـلاق.. أنا أنا تحرجيني كده.. وحيات تربة أبوي شهر كامل ما أنوم. فاهمة ولا ما فاهمة»

فيقول له الغريب:

«لا يــا عم حمد. مــا تحلف ساي. شهر كتير خالصــ.. السقد ما بيقدر عليهو»

«لا لا أنا ما ولد صغير.. أنا كلامي واحد. شهر يعني شهر»

أحيانــا، يصــاب المــرء بالذهول من جــراء اكتشافــه لظاهــرة أو قضية يستعصي على العقل قبولها، بــل والإقرار بها. ومن ضمن هذه الظواهر ما أصبحــت تعرفه إنداية السرة كحل العين، ربما لأنها الأقرب إلى قلب البلدة القديمة وسوق ود أمجبووالسوق الصغير الورا.

فإلى جانب عملها كفدادية، كانت إندايتها أيضا أحد الأماكن الأساسية التــي تضرب منها المواعيد بين فتيات وسيــدات محترمات من علية القوم بالبلــدة القديمة، للتوجــه إلى أماكن معلومة لممارســة السحاق، بعد أن فجر إعــلام نظام الحاكم العام قضيــة الجندر، على الرغم من رفضه التوقيع على إتفاقية سيداو.

حسب جادين جانو في الفترة التي تلت مقتل صانع الفخار وأثناء بحثه المستميت لتجميــع أعماله، أن حمد الأعرج أفاده أن ظاهرة تفشي المثليين

بــدأت تتفشى وسط الطالبات والطلاب وفقا للحكايات التي كان يسمعها من زملاؤه في المطبعة القديمة.

فيؤكد جادين إستنادا على مصادر أخرى:

«أن إختيــار إنداية السرة أو أي إنداية أخرى لضرب المواعيد، ذلك لأن الإندايــات باتت أكثر الأماكن أمانا ولا تثــير الشكوك باعتبار حركة الرواد مــن مختلف طبقات المحتمع، فضلا عن كونها المكان المعروف لطلب المتعة، ما يرفع الحرج عن المثليين»

وهكذا كانتأيام الإندايات تمضي حكاياتها ما بين طرفي حافتين: الغرباء، الذين يجيء بهــم الطريق، والرواد الدائمين، الذيــن يتسللون من السوق الورا بعد أن يقضوا إحتياجاتهم فيه.

موقــع السوق الورا، موقع غريب وفريد..فهو كيان مذهل! يتصل بالبحر والأنهــار، حيث دلتــات الطين الصلصــال.. بإختصار: الســوق الورا ظل عــبر تاريخه، ملتقــي لطرق العالم القديم والجديد.. هــذا الموقع المميز جعله مركزا حيا لتجارة الفخار، بالتــالي إنتقال مركبات الثقافة والأديان والسحر والدجــل والشعوذة والعادات والتقاليد و.. والأعــراف و الطرق الصوفية، والطوائف الدينية، فيما بعد.

تجــد في السوق الــورا كل شيء بدء بالمشغــولات الذهبية، وصناعات الحديــد والألمونيوم والكوانــين، مرورا بصناعات السعــف وكناتين الكول، والتوابــل والمأكــولات الشعبية، وجــزارات الكمونية واللحــوم والأسماك والدواجن..

هكـذا إذن نشـأت علاقات تجاريـة وثقافية وسياسية معقـدة، مركزها السـوق الورا منـذ الأزل. حيـث كان القدماء يطلقون علـى السوق الورا تسمية «أرض الأرواح أو مقابر ود أم جبو أو أرض الله»، لشدة إنبهارهم بهذه الكيمياء العجيبة، التي تربط الآخرين.. كل الآخرين به- خصوصا علاقة الأحياءبالموتى والبعاعيت- وتجعلهم يتفاعلون مع الحياة التي تتصل به.

شعـوب البلاد الكبـيرة إعتادت السكنـى حول السـوق الورا، منذ العصور الحجرية. حيث أتخذوا أولى خطواتهم نحو الحضارة. فقاموا بصناعة الفخار وإستعمال المواقد والنار للطبخ. وقتها كانت البلاد الكبيرة التي يعتبر السـوق الورا حاضرتها، مركزا لحسد الجـوار وأطماعهم. التي ترتبت عليها غزوات وإحتلالات وإقتطاعات في الجغرافيا، خصوصا في العهد الذي سبق الحضـارة الكوشية،حيـث حاول الغزاة القادمين مـن مصب النهر، فرض لغتهم وثقافتهم؟!

وكان الحـال هكـذا أيضا على عهـد الهكسوس. والعهـد المروي. أي إستمـر الإستهداف العنيف والمباشر في المـرات الأولى، حتى القرن الرابع الميلادي. عندما ازدهرت تجارة الصمغ والعاج والبخور والذهب، بين الغزاة المحتملين وبين السوق الورا.

السوق الورا كان غريبا بين الأسواق، في كل العصور.خصوصا عصري الذهـب الأبيض والأسـود، فهو منذ القـدم ظل متصلا بـدول الصحراء الكـبرى غربا وشمالا، وبلاد النجاشي شرقا، وجنوبا حيث الماو ماو والبانتو والألور والكاراموجا.. بل كان متصلا حتى بهند بوذا؟! كما أن هوميروس

أكـد بشدة، أن الآلهة يجتمعـون كل عام في هذا السوق في عيد التنصيب السنوي، يتبادلون الأنخاب والأفكار؟!

لـكل هـذه الأسبـاب التاريخيـة، كان العشـاق لا يصبحـون عشاقا تاريخيين، إلا خلال علاقاتهم الناشئة في الكيمياء العجيبة لهذا السوق!.. وهكذا تكرسـت علاقة منصورة بصانع الفخـار- الحفيد، خلال حياة هذا السوق!

XII

صانـع الفخار الأكبر، كان هو أول مـن تنبأ بوجود الزيت الأسود، تحت الطبقـات القصوى للطين، خلـف السوق الورا عند مقابـر ود أمجبو..وفي مواقـع أخرى مختلفـة، من سهل البلاد الكبيرة الواسـع. لكن هذه النبؤة تم التواطـوء عليهـا عبر الحقـب المتعاقبة، ولم يماط عنها اللثـام إلا في وقت متأخر..

وفي الحقيقة لم يتنبأ صانع الفخـار بوجود الذهب الأسودفحسب، فقد سبقـت نبؤته هـذه نبوءات عديـدة، ترتبط جميعها بمكنونـات الطين. وما ينطوي عليه مـن معادن عديدة، في الأنحاء المتفرقـة لسهل البلاد الكبيرة الواسع.

وأجمعـت كل هذه النبؤات، أن جشع الحـكام وإستبدادهم وطمعهم وفسادهم، سيـؤدي للإقتتال على مكنونات الطين، ما يضع السهل كله في مهب الريح السموم، فيتحول الطين إلى ما هو أسوأ من الحصرم.

الآن بعـد كل هذه العصور،عندما ينظر «جاديـن جانو» إلى ما توفر بين يديـه، من نبؤات يشعـر بغصة في حلقـه، فالتواطؤ على نبـؤات مكنونات الطـين، أدى إلى إنفجار هذه المكنونات، وتبع ذلك الحروب و الفقر والجوع، والتدهور البيئي وتمزق السهل الواحد إلى سهول عديدة!

XIII

كان الطين إذن هو نافذته، التي يطل منها علي تاريخ البلاد الكبيرة، في عصورها الغابــرة وعصرها الحالي ومستقبلها.. بعد مئات السنوات.. عندما يولد صانع الفخار الحفيد، ذات صبيحة مشبعة بدعاش النيل النديان.

لــذا وهو يرى الماضــي والمستقبل متزامنان في حاضــره، إهتم بالبحث في مفــردات هذا الماضي، فعلم مــن الأدوات الحجرية، التي عثر عليها أثناء تسفاره وتجواله وتنقلاته، في سهل البلاد الكبيرة الواسع. أن الإنسان سكن هذا السهل في البلدة القديمة في عصر الحجر. وأن هذا الإنسان كان جنســاً زنجيــاً، يختلف عن أي جنس زنجي آخر،يعيش اليوم. وقد إتخذ أول خطوة معروفة نحو حضارة السهل. وكان ذلك بصناعة الفخار وإستعماله.

وأن أحفــاد هــذا الإنسان، كانــوا مغرمين بالبحث في الطــين.. فقادهم البحــث لإكتشاف النحاســ، الذي قامــوا بتعدينه، وصناعــة العديد من الأدوات و المشغولات منه.

وظــل هــذا الإنســان على الــدوام مستهدفا مــن الجــوار، على حدود السافل .مــا قاد للإحتلال الفعلي لجزء مــن أراضي السهل أسفل النهر.إذ تمــت السيطرة على منطقة «سمنــة» التى بنى فيها الغزاة ستة عشرة حصنا منيعا.

أحفـاد هـذا الإنسان نفسه شيـدوا حضارة كرمة، التـي تدل تنقلات جاديـن جانو في أرجاء السهل، وما عثر عليه مـن جداريات ومنحوتات في الكهوف والجبـال المحيطة، أن أحفاد الغزاة الأوائـل، حرصوا على تشييد مركزا تجاريا كبيرا فيهـا، كان لوجوده أثر كبير في المصاهرة وإنتقال مركبات الثقافة..

وما لاحظه في بحثه عن «كرمة» الفخار الممتاز، الذي سيعرف بعد مئات السنوات ب»خزف كرمة»، والذي يُعتبر أجود خزف عُرف في وادى النيل، منذ فجر التاريخ.

الأحفـاد المتعاقبين للغزاة الأوائل-على عهدالهكسوس- وجهوا همهم إلى بـلاد النوبة. وشرعوا في تنفيذ سياسـة توسعية تجاه البلاد الكبيرة. إلى أن تمكنوا بعد سنوات طويلـة، من إحتلال أجزاء واسعة من السهل أسفل النهـر، وحتى الشلال الرابع لمدة ستة قرون. إستنزف الغزاة خلالها الكثير مـن موارد البلاد الكبيرة المتعددة، مثل الذهـب.. خشب الأبنوس.. سن الفيـل.. العطور.. البخـور.. ريش النعـام.. الفهود وجلودهـا.. الزراف.. كلاب الصيد والماشية.

وفي هـذا العصر بلغـت البلادالكبيرة، أقصى درجـات رُقيها. إذ إزداد الرخـاء وإتسعـت التجارة بـين البلديـن، وطُبعًـت حضـارة سهل البلاد الكبيرة، بطابع الجوار أسفل النهر.

قـرون الإحتلال الستـة أثارت الوعـي القومي، لأهـالي سهل البلاد الكبـيرة. ونبهـت السكان الأصليـين، إلى أهمية بلادهم وكـثرة خيراتها.

فاستغلـوا أول سانحـة لاحت لهم، وهـي تدهور إمبراطوريـة الجوار أسفل النهر.فأعلنـوا إستقلالهـم. و وأقاموا عاصمة لمملكتهـم المستقلة في «نبتـه» الواقعة أسفل الشلال الرابع.

بـل وتمكنوا فيمـا بعد مـن إحتلال الجـوار أسفل النهـر، وإخضاعه. وتأسيس دولة قوية إمتدت مـن البحر المتوسط، حتي مشارف الحبشة لمدة تزيد عنالثمانين عاما.

وهكذا صارت كوش قوة لا يجهلها أحد. ولكن عندما غزا الجوار أسفل النهر الأشوريين، وإستخدموا الحديد كسلاح فاعل في ذلك الوقت، أجبروا «كوشـ» علي التراجع إلى الـوراء، داخل حدودهـا الأصلية، ضمن سهل البلاد الكبيرة الواسع المتسع.

وبإنتقال العاصمة من نبتـة إلى مروي،إزدهرت صناعة الفخار والحديد، حيـث كان العابرون يرون في مروي أكوامـاً عالية هي أثار فضلات الحمم، التـي كانت تخرج من أفـران صهر الحديد. ولهذا السبـب ستوصف بعد مئات السنوات ب «برمنجهام أفريقيـا القديمة»، لتستمر كحضارة أفريقيةلما يزيد عن الثمانية قرون. تنشر النور حولهـا من عقائد وأفكار وقدرات فنية.

عندمـا إعتلي عرش النوبة ملك يُدعي «داود» عام 1272م قام النوبيون بالهجوم علي المدينة العربيـة «عيذاب»علي ساحل البحر الأحمر. محاولة منهم لدًحر الغزاة العرب، من أراضي السهل الواسع جهة دار صباح.

بعد ذلك دخلـت مملكة النوبة في عهد المؤامرات، وإستمر الحال هكذا إلي أن إنهـزم «كودنيس» أخر ملك علي مملكة «دنقلا» عام 1323م، وإنتهت

الدولـة المسيحيـة، وصارت البـلاد مفتوحة أمـام الغزاة العـرب، وإنتشر الإسلام.

أمـا مملكة علوة، فلم تحمل جداريات ومنحوتات صانع الفخار، معلومات تذكـر بشأنها، عدى الشذرات التي أفادت أنها، ستسقط عام 1504م علي يد تحالف العرب العبدلاب القواسمة والأفارقة الفونج.

بينـت حضارة كوش، أنها غربلة أفريقية للآَراء والأساليب والمعتقدات، تأخـذ منها مـا ينفعها وتضيف إليها مـا إبتدعتـه. إلى أن دهمها الخطر من جنـوب الجزيـرة العربية، عندمـا هاجـر قوم من هنـاك إلي داخل الحبشة، وأنشـأوا دولة أكسـوم، التي قويت وإستطاعت أن تحـول بين كوش وشرق القارة الأفريقية والمحيط.

وبالتدريـج تمكنت هذه الدولة مـن قـهر كوش عندمـا قام «عيزانا» أول ملك مسيحي لها بـغزو كوش وتحطيم عاصمتها مروى عام 350م.

إذن في الأصوات المتلاشية لحطام مروي، كانت دار الريح ترجع الصدى، وتتململ لتفصح عنممالكهـا الصغيرة، المتناثرة في جغرافيا الوديان، كجزر في أرخبيل واسع.. والتي فيما بعد وعلى أنقاض هذه الممالك. ومنذ 1445 أخـذت تشكل سلطة الإقليـم الموحد، بنظامـه الإداري الواحد، الذي لا يستتثنى شبرا من أرض دار الريح، التي هي خمس مساحة البلاد الكبيرة، قبل إنفصال الصعيد.

وبعـد عشرات العشرات من السنوات،لدىإستيلاء كل حاكم عام – سـواء كان محليا أو أجنبيا– على السلطـة في البلاد الكبيرة. كان لايؤرقه

شيء سوى دار الريح. التي تناقضت على الدوام مع «مركزية سنار» بالتالي «أمدرمان».فـدار الريح بسلطتها الواحدة وإقليمهـا الواحد الموحد، ليست مجرد جغرافيا يتشـكل داخلها سؤال السلطة—ففكـرة الجغرافيا الواحدة الموحـدة- صـارت بمرور الوقـت كالعقيدة في وجدان السـكان الأصليين، بالتالي حجر عثرة أمام مخططات الطوائف والحكام العامين التقسيمية،التي تهـدف لإضعافها بالتفتيت. ليؤول هشيمها إلى سيطرتهم الكاملة. ولذلك عمدوالإزاحـة أهل الدار،وإحلال وافدين محلهم مـن عرب غرب أفريقيا وشمالهـا الرُّحل، بإسم نقاء العـرق. كعامل تفتيت فاعل، بعد فشل عامل الديـن والمصاهـرة في تدمير اللغـات والثقافات المحلية.وهكـذا معادلات السياسةأفضت في النهاية إلى أثننة كافة أنشطةالحياة.

ماأصـاب الناس بالفزع.. ففي كل يـوم يمر،يتكشف لهم الحجم الكبير للمؤامرة، التي تتعرض لها البلاد الكبيرة، وخصوصا دار الريح!وهكذا بدأ الأهالي يتسللـون إلى الفيافي والغفار والغاابات،يحملون السلاح. مفتتحين فصولا داميةمـن حرائق الأرض والتاريخ واللغة، علـى أنقاض الإدعاءات الدينية والعرقية البائسة.

(إنتهى الجزء الأول- آلام ذاكرة الطين)

ويليه:

الجزء الثاني: (مقاطع من سيرة المقدس سره)

الجزء الثالث: (خريطة الطريق)

ميريلاند، برينسس آن– أيوا سيتي، سيدار رابيدس

2014-2012

رقم الايداع: 2016/699م